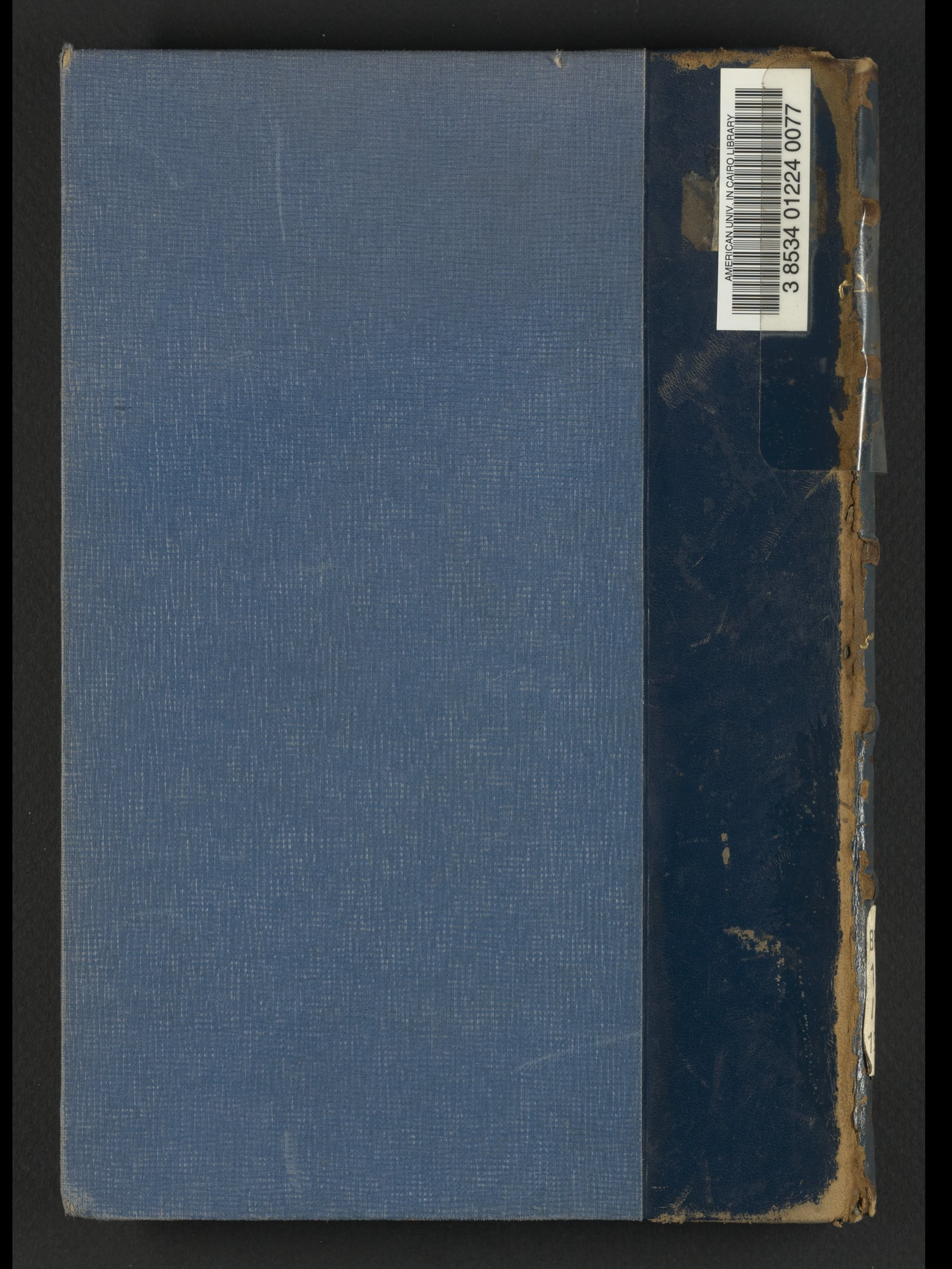
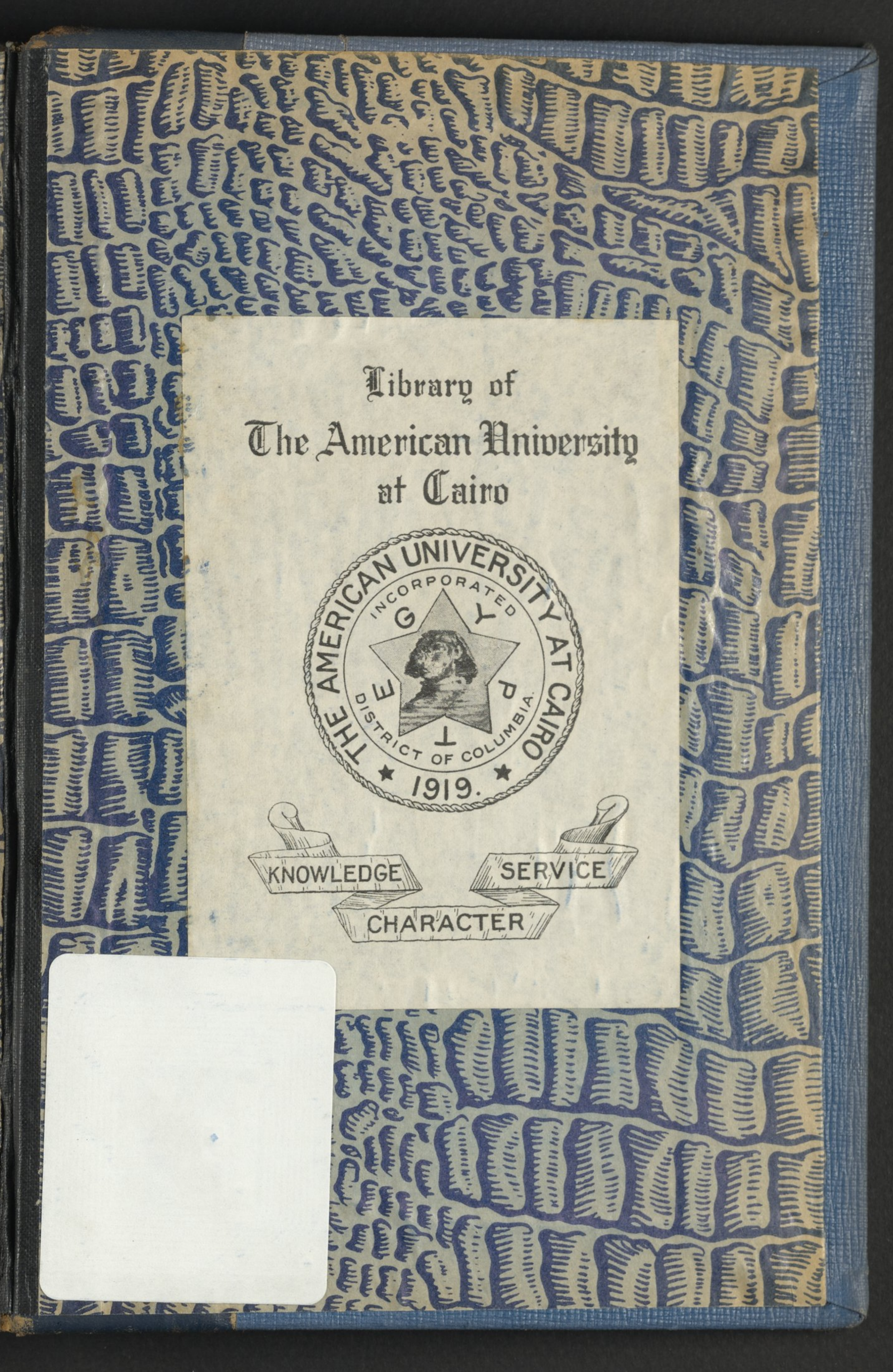
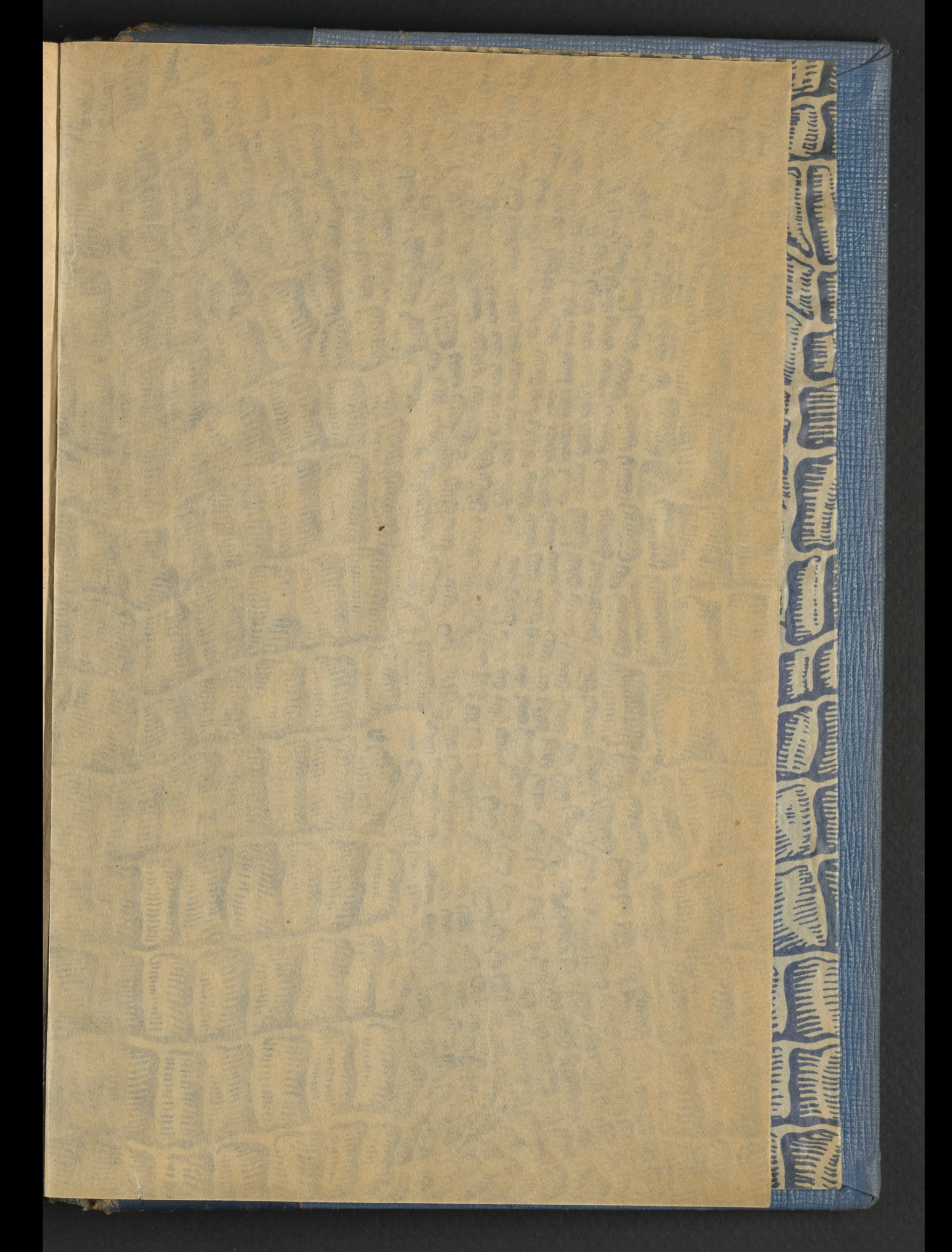
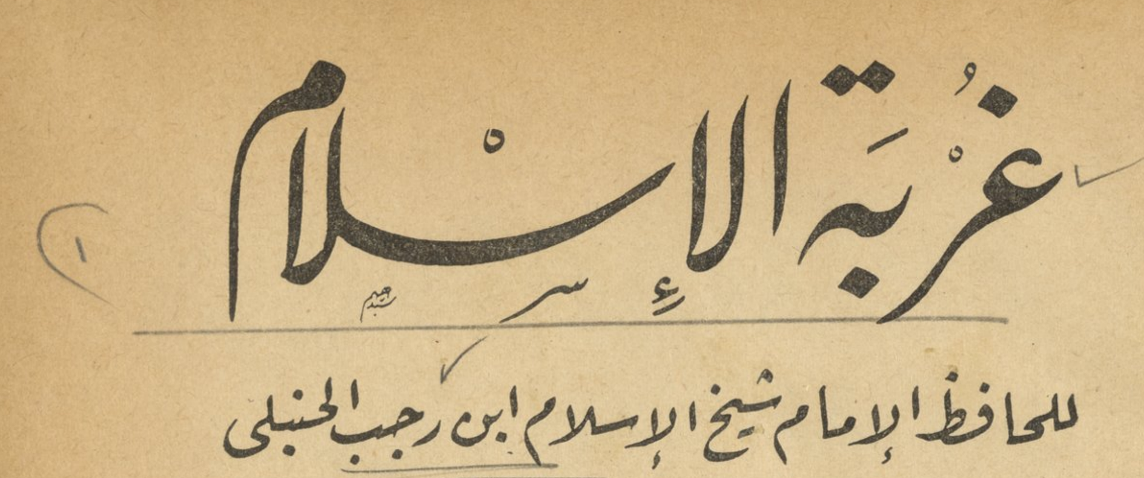



Library of
The American University
at Cairo
THE AMERICAN UNIVERSITY AT CAIRO
INCORPORATED
E G Y P T
DISTRICT OF COLUMBIA.
1919.
KNOWLEDGE
SERVICE
CHARACTER







للحافظ الإمام شيخ الإسلام ابن رجب الحنبلي

ويسمى : « كشف الكربة بوصف حال أهل الغربة »

تحقيق وتعليق وشرح

أحمد الشرباصي

من علماء الأزهر الشريف

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

الطبعة الأولى

١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى إمامهم وخاتمهم محمد ، وعلى وآله وصحبه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

وأستفتح بالذى هو خير : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير

الإهداء

إلى الغرباء بحقهم فى دنيا الباطل .

نهدى هذا الحديث ..

عبرة ، وتذكرة .

أحمد الشرباصي

تصــــدير

من القرآن الكريم

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب .

واذكروا إذ أنتم قليل مستضعَفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون

واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » .

« سورة الأنفال ٢٤ — ٢٨ »

غربة الإسلام

بقلم شارح الكتاب

الإسلام غريب بين أهله ، وبين غير أهله !. .

والإسلام غريب فى بلاده ، وفى غير بلاده ! . . .

هذه حقيقة مرة ، نقررها ونحن نجد لها من مواقع الأسى فى النفس ، والشجى فى القلب ما يذهب بحلم الحليم . أمَّا أن الإسلام غريب بين غير أهله ، وفى غير بلاده ، فأظن أنه لا يتجادل اثنان عارفان بحالة العالم اليوم فى هذه الحقيقة ؛ فمنذ سكنت ريح الدعوة الإسلامية بصورتها العالمية الواسعة المدى والنشاط ، التى تعاونت فيها أياد وقُوى ومَمَلكات ، أصبح الجزء الكبير من المعمورة الذى نصفه بأنه بلاد غير إسلامية جاهلاً بالإسلام ، مقطوع الصلة بتعاليم هذه الملة الإلهية الغراء ، التى جاء بها محمد صلوات الله عليه نوراً ورحمة وهداية للعالمين . .

نعم إن هذه البلاد تسمع بدين اسمه الإسلام ، وتسمع عن أتباع يتبعونه — أو ينتسبون إليه بمعنى أدق — يسمَّوْن بالمسلمين ، ولكن ما هو ذلك الإسلام فى حقيقته ؟ . . وما هى رسالته الصحيحة فى الوجود ؟ . . وما هى المقاصد التى يعمل لبلوغها فى الفرد والجماعة والعالم ؟ . . وما مدى الإصلاح الذى يقدمه لحل مشكلات البشرية ،

وتخفيف آلامها ، وتحقيق سعادتها ؟ . . ومن هم أولئك المسلمون ؟ وما هى مميزاتهم ، وخصائصهم ، وتاريخهم ، وجهادهم القـديم ، وطاقاتهم الحاضرة ؟ . .

كل هذا لا يعرف عنه أولئك القوم من غير المسلمين شيئاً ذا قيمه أو ذا بال ! . .

* * *

والإسلام غريب بين أهله ، غريب فى بلاده . . .

قد تكون نسخ المصحف الشريف كثيرة متوافرة متداوَلة بين الكبار والصغار من المنتسبين إلى الإسلام ، بل لعل المطبعة سهلت إخراج الملايين من نسخ هذا المصحف ،ثم عاونت وسائلُ النشر والنقل والتعميم على بث هذه النسخ فى الآفاق ، ولعل تلك الآلة العجيبة « المذياع » كانت أقوى وسيلة لإذاعة آيات الذكر المجيد على آذان الملايين فى الصباح والظهيرة والمساء ، وفيما بين هذه الفترات الثلاث من أوقات ، بصورة لم يسبق لها مثيل فى عصر من العصور .

وقد تكون تفاسير القرآن وكتب السنة وشروحها والمؤلفات الإسلامية وما اتصل بها أضعافَ أضعافِ ما كانت عليه بالأمس القريب أو البعيد .

وقد تكون هناك جماعات لها أسماء إسلامية ، ولها مناهج ورواشم إسلامية ، وتتردد من أهليها صرخات باسم الإسلام ، وتبدو منها حركات تحاول وسمها بسمة الإسلام .

وقد تكون هناك مظاهر إسلامية ، وعناوين إسلامية ، وشهادات ميلاد فيها كلمة « مسلم » ، وبلاد واسعة عريضة تسمى بلاداً إسلامية ، وقوم مسلمون يعدون بمئات الملايين فى الشرق والغرب . . .

وقد يكون هناك تظاهر بحب الإسلام ، وهتاف بالغيرة عليه ، ونقد شديد أو هادىء للذين يجاهرون بالخروج على أمره ، وثناء ملفوظ على الذين يرددون كلماته ، ويَبدون فى سماته . . .

قد يكون كل هذا موجوداً فى بلاد العالم الإسلامى ، بنسب متفاوتة أو متقاربة ؛ ولـكنك تفتقد بين هذه المظاهر الكثيرة الطويلة العريضة « روحَ الإسلام » ؛ وتتعب نفسك فى البحث عن « المسلم الصحيح » ، وينفد جهدك وصبرك قبل أن تجد « الأمة المسلمة الصادقة » التى تلتزم حدود الإسلام قولا وعملا ، أو مبنى ومعنى ! . .

* * *

إن للإسلام « عقائد » ؛ إذا صح تلقيها ، وصدقَ الإيمان بها ،

وكملت الاستجابة لها ، سيطرت على النفس والروح والقلب والعقل والجسد ، وأفهمت الفرد — كما تُفهم الجماعة — أن للكون إلهاً يجب أن يُعبد ، وأن لا يُعبد أحدٌ سواه ، مهما كان قويا أو غنيا أو عليًّا ، وأن هذا الإله المعبود بحق هو مصدر كل شيء ، وإليه مصير كل شيء ، فيجب أن لا يلفتنا عن هديه شيء : « وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يُطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

وأفهمت الفردَ — كما تفهم الجماعة — أن لهذا المعبود بحق رسولا كاملا خاتما ، اصطفاه الله لرسالته ، وصنعه على عينه ، وحمَّله أمانة وحيه ، وجعله منذ بعثه إلى أن تقوم الساعة شاهداً ومبشرا ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وجعل طاعة ذلك الرسول من طاعة ذلك الإله ، وحبَّه من حبه ، وعداوتَه من عداوتِه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . وهذا الرسول — من أجل ذلك — يجب أن يكون مثلا ، وقدوة ، وأُسوة ، فهو حى باقٍ بسنته وهديه وتعاليمه ، وإن لحق بالرفيق الأعلى بصورته وبدنه ! . . .

وأفهمت الفرد — كما تفهم الجماعة — أن الدين لا يتم معناه

عند المنتسب إليه حتى يؤمن بالله ، وكتبه ، ورسله ، وملائكته ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، ولقاء الله يوم البعث الأكبر ، وحتى يعمل بمقتضى ذلك فى نفسه ومع سواه .

أنستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه « العقائد » لا زالت سليمة قوية كما أرادها الله فى الذين ينتسبون إلى الإسلام اليوم ؟! .

* * *

وإن للاسلام « عبادات » ، تتمثل فى صلاة خاشعة زاجرة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، مرتفعة بصاحبها فى درجات السمو الحسى والروحى ؛ وفى صوم يتطهر به القلب والصدر ، كما يتطهر به البطن والبدن ؛ وفى زكاة تحصِّن المال وتحقق التكافل وتنشر الرحمة ؛ وفى حج يراد به التخفف من الأوزار ، والاستجابة لرب الأرباب ، والتعاون على البر والتقوى ، والتشاور المجدى المؤدى إلى عزة الإسلام ورفعة المسلمين . . .

أنستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه « العبادات » لا زالت تُؤَدَّى كما أرادها الله لعباده ، أو كما أرادها نبى البشرية ومربى الإنسانية محمد صلوات الله عليه حين يقول : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، أو كما أدَّاها السابقون الأولون من الصدر الأول ، أو كما أداها مَن بعدهم ممن قرب منهم ولحق بهم على تفاوت فى الأقدار والآثار ؟! . .

وإن للاسلام « أخلاقا » جعلت رسوله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وجعلت القرآن الحكيم يعتبرها معقد الفخار لمحمد الأمين : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، ومن هذه الأخلاق الأمانة والوفاء ، والصدق والحياء ، والعفة والسخاء ، والصبر والمضاء ، وما اتصل بها وتضافر معها على تكوين الشخصية المسلمة المتخلقة التى تبدو بين الناس وكأنها أحد الملائكة قد جاء يسعى فى صورة إنسان .

ولم لا وهى التى تدعو إلى الإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن يعفو المسلم عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، وأن يكون نطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرا ؟ ! . . .

أنستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه « الأخلاق » لا زالت معروفة مألوفة فيما يسمى بالمجتمع الإسلامى اليوم ؟ ! . .

* * *

وإن للإسلام « أحكاما » تتنوع عقوباتها وجزاءاتها ، وقد أقبلت هذه الأحكام على عالم مريض متحلل متفسخ ، فقوّمت عوجه ، وأصلحت فساده ، وجمعت شتاته ، ووطدت نظامه ، وجمعت بين التأديب والتهذيب ، والزجر والجبر ، ولاءمت بين شدة العقوبة

والدقة فى التنفيذ ، وبها استقر أمر الإسلام والمسلمين أمداً من الزمان .

أنستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه «الأحكام» وتلك «الحدود» يُعمل بها اليوم ، أو يُرعى شأنها بين المسلمين ؟ ! . .

الواقع أن داهية دهياء دخلت على جماعة المسلمين فأفسدت فيهم عقائدهم ، وشوهت عباداتهم ، وهدمت أخلاقهم ، وضيَّعت أحكام ملتهم ؛ مع أن هذه الأربعة هى الدعائم الأساسية التى ينهض عليها الدين ، وبغيرها لا يكون هناك دين ولا متدينون ! ! . . .

* * *

وانظر إن شئت إلى بلاد الإسلام ومجتمعات المسلمين . . فماذا أنت واجد ؟ ! . .

ستجد أشياء وأشياء وأشياء ، ولكن لن تجد ذلك الإسلام الذى أراده الله لعباده ؛ الإسلامَ الحىّ القوى الفتى النابض بالعقيدة والإيمان واليقين ؛ الإسلام الغض الطرى الذى كأنما هو لا يزال حديث عهد بمصدره هناك . . . هناك فى الملكوت الأعلى ! ! . .

إنك إن نظرت إلى الإسلام فى بلاده تجده فى بعضها « شيئا » يُستخدم عند الحاجة إليه فقط ، فهم يعتبرونه كالأقراص الطبية المهدئة ، أو الدواء الوقتى المسكِّن ؛ فإذا عرض لهم عارض من زلزلة

أو بلبلة ، أوجدَّت لهم حاجة من حاجات النفس أو الحياة أو الحكم ، أو ضاقت بهم وجوه الأرض فلم يجدوا لهم منها منفذا ، وظنوا أن الدين ينفعهم ولو بتأويل ، وأن كلمته تشفع لهم ولو جاءت على غير وجهها ؛ تظاهروا بحب الدين والرغبة فيه والميل إليه والحرص عليه ؛ وفزعوا إلى الذين جعلوهم له سدنة ، يسألونهم الحكم فيما يريدون ، ويستحثونهم على الإفتاء كما يرغبون ؛ وهم مع شديد الأسى والأسف لا يعدمون من بين هؤلاء الذين نصبوهم سدنة من يصطنع الأدلة والبراهين ، ومن يحرف الكلم عن مواضعه ، ومن يحمِّل نصوص الدين ما لا تحتمل ، ومن يُؤول فيسرف أو يُضحك فى التأويل .

وتؤدى الفتاوى المنتزعة المصطنعة وظيفتها كما يحبون ، أو قريبا مما يحبون ، أو بعيدا مما يحبون ، على حسب الظروف والمناسبات ، فإذا ما انتهى الأمر الذى يطلبون أعيدت « الأقراص الطبية المهدئة » ، و « الدواء الوقتى المسكِّن » إلى خزانة الأدوية والعقاقير الصناعية ، وأُغلق باب الخزانة بمفتاحه إغلاقا محكما ، وانتُزع المفتاح من ثقبه ، ووضع فى جيب قوى قادر ، فإذا صرخت هذه « الأقراص » من الداخل بأنها صالحة لكل الأحوال لا لحالة واحدة ، وأنها كل لا يتجزأ ، ودواء دائم لا يتخلف ، قيل لها : ما هذا الهراء ؟ . . .

وحيل بينها وبين تكرار النداء .

وإذا ما صرخ أطباء ، أو اشتكى مرضى يؤمنون بأن دواءهم

الدائم الكامل فى هذه « الأقراص » وطالبوا بها ؛ قال لهم القادرون الأقوياء : إنكم لمفسدون فى الأرض ، تريدون أن تأتوا على المجتمع من الأساس .

وهكذا ترى الإسلام فى بعض بلاد الإسلام يعرفه بعضهم حينما يحتاجون إليه ، وينكرونه وينكرون عليه وعلى دعاته حينما يحتاج إليهم وإلى نصرتهم ؛ وإنهم لقادرون على أن يجعلوا ذلك الإنكار ناراً وإعصارا ، وجحيما ويحموما ، وإن دعاة الإسلام — فى الغالب — لعاجزون عن ملاقاة الإعصار بالإعصار ؛ ورضوان الله على عمر الفاروق يوم شكا إلى ربه ضعف الأمين وقوة الخائن ! . .

***

وتنظر إن شئت أيضا إلى بعض بلاد الإسلام ، فإذا الإسلام فيها ليس غريباً منكوراً فحسب ، بل هو مفترى عليه ، منسوب إليه ما لا يليق به ، وما هو منه براء ؛ فهم يعدونه سبب التأخير والتعويق ، وعامل الهدم للقوميات والوطنيات ، وحجر العثرة فى طريق الرقى والتقدم ؛ ولذلك يحاربونه ويقاومونه ، ويحاولون الاستعلاء على صوته ببعث العنصرية ، وإثارة العصبية القومية ، وتحريك النعرة الجنسية .

ولو أن هؤلاء عرفوا سبيل القصد والعدل فى حبهم لأنفسهم وأوطانهم ، وأخلصوا لله ولقومهم نياتهم ، لأدركوا أن الإسلام هو

خير من زكّى الوطنية الصادقة فى حدها المعتدل القويم ، وهو الدين الذى يجعل الدفاع عن الحمى والذمار فرضا مقدسا ، وهو الدين الذى يُفهم أتباعه — كما يفهم الناس أجمعين — أن الدعوة لا بد لها من دعاة ، وأن الدعاة لا بد لهم من وطن يقومون فيه بدعوتهم ، وأن هذا الوطن لا بد من أن يكون حرا عزيزا ، حتى يكون أهله — وهم دعاة الملة — أحراراً أعزاء ، ومن ثَمَّ يكون دينهم عزيزا قويا .

ولكن . . . لمن تقول القول ، وأكثرهم عن الصراط ناكبون ؟ . .

* * *

وتنظر إلى بعض بلاد الإسلام ، بل إلى بلاد الإسلام ، فإذا الإسلام غريب كل الغربة فيها . . . هذا الإسلام الذى جاء وشعاره (التوحيد) فى كل أمر يناسبه التوحيد ، فجعل الرب واحدا ، والرسول واحدا ، والقبلة واحدة ، والكتاب واحدا ، والسنة واحدة ، والخليفة واحدا ، والمبدأ واحدا ، والغاية واحدة ، وجاء فى محكم دستوره : « إنما المؤمنون إخوة » ؛ وجاء فيه أيضا : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

هذا الإسلام يخذله أبناؤه شر خذلان ، حينما تراهم يتفرقون ذلك التفرق ، وتتشتت جموعهم ذلك التشتت .

فهذه مذاهب فقهية متعادية ، وهذه أحزاب سياسية متناحرة ، وهذه طوائف دينية متقاتلة ، وهذه سنية ، وشيعية ، وسلفية ، وخَلفية ، ونقلية ، وعقلية ، وأثرية ، وقبورية ، وتقدمية ، وتزمتية ، ورجعية ، وتحررية . . . إلى ما شئت من مذاهب وطرائق ونحل وشيع يتبدى معها أهل الإسلام وكأنهم أهل مجموعة من العقائد والأديان والآراء ، لم يستطع الجوارُ ، ولا اتحاد الموطن ، ولا اتحاد الآمال والآلام وغيرهما من مواطن الاتحاد أن تجمعهم على كلمة سواء . . . فيارباه لأبناء الدين الواحد وهم أشتات ! . .

* * *

ويصل الأمر فى غربة الإسلام بين أهليه إلى أن بعض دياره قد أصابها من ألوان البلاء والشقاء ما جعلها لا تجد من وقتها ولا من طاقتها ما تفكر به فى الإسلام ، فهى طعينة فى صميمها ، وهى مأكولة لذئاب البغى عليها ، وهى هدف لكل رام ، ومائدة لكل طاعم ، لا تخلص من دخيل إلا لتصطلى بدخيل ؛ فأنت والحالة هذه لا تستطيع أن تسائل نفسك أو غيرك عن مكان الإسلام فيها ، أو مكان الإسلام منها ! ! . . .

ويتعلل هؤلاء الجرحى فى تفريطهم فى حقوق الإسلام بما صُبَّ ويُصب عليهم من بلايا ونكبات ، وقد يكون لهم كل الحق

فى الاعتذار أو بعضه ، ولكن الذى لا يسوغ فى حلق ، ولا ينهض له حجة ، أن نرى من بلاد الإسلام دياراً كشف الله عنها بلواها ، وبارك لها فيما أعطاها ، وهيأ لها الحياة المطمئنة المتحررة ، ومع ذلك لا تلتزم الإسلام ، ولا تصدُق فى تطبيقه عبادة وقيادة ، وهدياً وحكما ، وإذا ما نفذت بعض التعاليم أو الأحكام فإنما يكون ذلك لدافع من دوافع السياسة أو ضمان الحكم ؛ وأقل ما يوصف به ذلك الوضع أنه كوضع أولئك الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؛ والوعيد الربانى القرآنى المحكم فى ذلك صريح موجع : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .

ومن المضحك المبكى معاً أن نرى مسلمين — أو متمسلمين — يريدون ستر تفريطهم أو ضعفهم أو جريتهم ، فيزورون على الله وعلى الناس ، فيتركون صميم الأمر من الإسلام ، ويعرضون عن لبه وعماده ، وينصرفون إلى « منفِّسات » شكلية ، أو « تهاويل » عَرَضية ؛ ففريق يكتفى بالصياح والهتاف ، ظناً منه أنه ما دام قد نادى بالمبدأ فقد انتهى كل شىء ؛ وفريق يقنع بالشكوى الملفوظة أو المسطورة ؛ يشققها ويلونها ويتفنن فيها ، مفصّلا تارة

ومجملا تارة أخرى ؛ وفريق يرسل الأحكام الكلية العامة الغامضة المتصلة بالدين وحكمه ، فإذا قيل له : فما وسائل التطبيق ؟ وما فصائل التحليل والتدقيق ؟ وما مواد التنفيذ المتميزة المتجزئة ؟ . . . خنس وسكت ، أو وعد بها وسوَّف ، أو تخلص من ذلك ومرق ! ! . .

ومنهم من يرى الحدود المعطلة ، والكبائر المأتية ، والمنكرات المجاهرة ، والمآثم الذائعة ، والعدوان السافر على حقوق الله وعقائد الملة وقواعد الأحكام ، فلا يحرك من أجل ذلك ساكناً ، ولا يفتح فما ، ولا يشرع قلما ، ولا يخلص فى نصيحة ، لأنه يرهب ويخاف ، ويحسب ألف حساب لعواقب الكلام فى مثل هذه الجلائل ؛ ثم يحس — ولو فيما بينه وبين نفسه — بسخط الله عليه ، وبغض الناس له ، وطعن الناقدين فيه ، وإشفاق المشفقين عليه ، فيحاول أن يستر تفريطه فى الحق ، وسكوته على الباطل ، ومداهنته فى الدين ، ورهبته من الخلق أكثر من الخالق ، فيتعلق بأسباب صغائر وتوافه وشكليات ، ويتظاهر فيها بالبطولة الكاذبة ، والغيرة المصطنعة ، والتدين المفتعل ، فيتكلم ويطيل الكلام ، وينادى ويرفع العقيرة . . .

ألا نتذكر ما ثار ويثور حول إرخاء العذبة ، وإرسال اللحية ، وإقامة المحراب ، وطريقة الأذان ، والصلاة على النبى بعده ، وطريقة

إمساك السواك ، والمشى وراء الجنازة أو أمامها ، وغير ذلك من المسائل ؟ . . .

ألا تتذكر كيف استحوذت هذه الأمور على العناية والاهتمام ، بينما ضاعت بجوارها عظائم وجلائل ؟ ! . .

لم كانت كل هذه العناية بهذه الصغائر والشكليات ؟ ولم كان هذا السكوت المزرى على الحق المضيَّع والباطل السائد ؟ ! . . .

جواب ذلك عند الأقزام الذين يريدون أن يكونوا عمالقة ، وعند الذين يأكلون دنياهم باسم الدين ! ! . .

ومنهم من يعجز عن مواجهة الحياة فى ميادينها الرحيبة الواسعة ، متسلحا بدينه السمح ويقينه الوطيد وإيمانه بالأُولى والآخرة ، فيعتزل هذا المعمعان ، ويعكف على التعبد الظاهرى اللفظى السقيم ، ويسرف فى ذلك إسرافا مشينا يضيِّع به حقوقا مستحقة فى عنقه لله والوطن والعباد ! . . .

ومنهم من يحاول التعبير عن « الكبت » الدينى المقلوب الوضع ، المضطرب النزعة فى نفسه ، فلا يحلو له هذا التعبير إلا فى التزام بعض المظاهر فى الجسم أو الملبس أو المشية أو الهيئة ، وتراه يغلو فى ذلك غلوا فاحشاً ، ويصر عليه إصراراً معيباً ، ويحب عليه ، ويعادى عليه ، ويعتقد — أو يجاهر بأنه يعتقد — بأن هذه

(المظاهر) هى الحقائق التى لو تمسك بها الناس لا نتشر الإسلام وساد ، وتحررت بلاده وعزت ، وسعد أبناؤه وفازوا ! ! . .

أفلا يكون الإسلام بعد هذا كله غريبا فى بلاده ، وبين أهليه ؟ ! . . .

لسنا — علم الله — نقول ذلك لنحرض على يأس أو قنوط ، « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، ولا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قائمين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ، والخير فى محمد وأمته إلى أن نلقى الله بإذن الله ؛ ولسنا نريد حين نسجل هذا التصوير المؤلم لحالة الإسلام بين المسلمين أن نزيد فى آلة البكاء وترا ، أو أن نزيد فى لحن الشكوى نغمة . .

وإنما نقول ذلك محاولين به تحريك الهمم وإثارة العزائم لبذل ما يجب نحو الإسلام والمسلمين ، وقد يكون حال العالم الإسلامى اليوم أفضل من حاله منذ سنوات ، ولكن الفرص الذهبية التى تتيحها الأقدار للعالم الإسلامى اليوم توجب عليه أن يهب وينهض ليحتل مكانه الطبيعى ، هاديا للناس بهدى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » .

وإذا أضاع المسلمون — لا قدر الله — هذه الفرص الذهبية من أيديهم ، ولم يستثمروها أو ينتفعوا بها إلى أقصى مدى ، فمعنى هذا أنهم لا يريدون الخير لأنفسهم ولا للناس ، ومعنى هذا أن دينهم سيظل غريبا بينهم وبين غيرهم ؛ والأنكى من ذلك عليهم — لو علموا — أنهم سيظلون غرباء فى أوطانهم ، وسيظلون طعمة لكل راغب ، وفوق هذا يستوجبون إشقاء الله لهم فى دنياهم ، ونقمته عليهم يوم لقائه : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟ ! . . .

ولعل هذه المعانى هي التى دفعتنى إلى أن أضع بين أيدى أبناء الإسلام ، هذا البحث الإسلامى الواعظ العزيز ، الذى كتبه الحافظ الإمام شيخ الإسلام ابن رجب الحنبلى عن « غربة الإسلام » بين أمس واليوم ؛ وأُطلق على هذا البحث اسم « كشف الكربة بوصف حال أهل الغربة » .

وقد شرح الإمام ابن رجب فى هذا البحث حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء »[1] . وجمع فى شرحه بين فنِّ المحدث ، وعلم الفقيه ،

---

[1] روى هذا الحديث فى سنن ابن ماجه بثلاث روايات هى :

(ا) حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، ويعقوب بن حميد بن كاسب ، وسويد بن سعيد ، قالوا : حدثنا مروان بن معاوية الفزارى ، حدثنا يزيد =

وترسل الواعظ ، ورقة المتصوف . ولكنه اقتصر فى تفسير الحديث على وجه وجيه لاح له كما لاح لغيره ؛ ولما كان هذا الحديث — برواياته المختلفة — يعطينا فى فهمه أكثر من وجه ، رأيتُ من المناسب أن أضيف إلى ما جاء بشأن الحديث كلمة لا أدَّعى بها فضلا ، ولكنى ألتمس بها شرفا حين تتعلق بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين تجرى فى سنن أولئك الذين يريدون بقولهم وجه الله ووجه الحق ، ويعملون للإسلام والمسلمين .

ويحسن أن نتعرف إلى المعانى اللغوية التى جاءت فى المعاجم

= ابن كيسان عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا ، فطوبى للغرباء » .

(ب) حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أنبأنا عمرو ابن الحارث وابن لهيعة ، عن يزيد بن حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس ابن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا ، فطوبى للغرباء » .

(فى الزوائد : حديث أنس حسن ؛ وسنان بن سعد مختلف فيه ، وفى اسمه) .

(ج) حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا حفص بن غياث ، عن الأعمش ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا ، فطوبى للغرباء » . قال : قيل : ومن الغرباء ؟ . قال : « النزاع من القبائل » . ج ٢ ص ١٣١٩ و ١٣٢٠ طبعة عام ١٣٧٣ هـ .

لألفاظ هذا الحديث النبوى الشريف ، وهى : بدأ — الإسلام — غريبا — وسيعود — فطوبى .

أما كلمة (بدأ) فقد جاء عنها فى لسان العرب باختصار : « فى أسماء الله عز وجل المبدىء ، هو الذى أنشأ الأشياء واخترعها ابتداءً من غير سابق مثال ؛ والبدء فعلُ الشىء أولُ . بدأ به وبدأه يبدؤه . . . والبديئة والبداءة والبديهة أول ما يفجؤك . . . والبدِىءُ الأول ، والبدىءُ الأمر البديع ، وأبدأ الرجل إذا جاء به ، يقال : أمر بدىء . قال عبيد بن الأبرص : فلان بدىء ولا عجيب ؛ والبدء السيد ، وقيل الشاب المستجاد الرأى المستشار[1] . . »

وجاء فى أساس البلاغة : « بدأ الله الخلق وابتدأه ، وكان ذلك فى بدء الإسلام ومبتدأ الأمر . . . وأمر بَدِىءٌ : عجيب ، وبَدَءوا بفلان : قدَّموه . ومنه : هو بَدْء بنى فلان لسيدهم ومقدَّمهم ، وهم بداة قومهم لخيارهم .. وخذ أبداء الجزور وبدوءها وهى خير أعضائها[2] » .

وجاء فى كتاب مفردات القرآن للأصفهانى : « يقال بدأت بكذا وأبدأت وابتدأت أى قدمت ، والبدء والإبداء تقديم الشىء على غيره ضرباً من التقديم . . ومبدأ الشىء هو الذى منه يتركب

---

(١) لسان العرب ج ١ ص ١٨ .

(٢) أساس البلاغة ج ١ ص ٣٤ و ٣٥ .

ومنه يكون ، فالحروف مبدأ الكلام ، والخشب مبدأ الباب والسرير ، والنواة مبدأ النخل[١] » .

وقد وردت كلمة (بدأ) فى آيات من القرآن الكريم . قال تعالى :

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه » . يوسف — ٧٦ .

« الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين » . السجدة — ٧ .

« وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة » . التوبة — ١٣

« إنه يبدأ الخلق ثم يعيده » . يونس — ٤ .

« قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » . سبأ — ٤٩ .

ولكن بعض روايات هذا الحديث جاءت فيها كلمة (بدا) بدون همز مكان (بدأ) :

جاء فى لسان العرب : « . وفى حديث آخر : إن الإسلام بدا غريباً ، وسيعود غريباً كما بدا ، فطوبى للغرباء . . »[٢] .

وجاء فى موضع آخر منه : « . . وفى الحديث : إن الإسلام بدا غريباً ، وسيعود غريباً كما بدا ، فطوبى للغرباء . . »[٣] .

---

(١) الأساس ص ٣٨ و ٣٩ . (٢) لسان العرب ج ٢ ص ١٣١ .
(٣) اللسان ج ١ ص ٥٣

وفى كتاب النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير : « . . فيه إن الإسلام بدا غريباً ، وسيعود غريباً كما بدا ، فطوبى للغرباء »[١]

وفى موضع آخر منه : « إن الإسلام بدا غريباً ، وسيعود غريباً كما بدا ، فطوبى للغرباء »[٢] .

ولذلك يحسن أن نتعرف إلى معنى كلمة (بدا) فقد يترتب عليه فهم جديد لمعنى الحديث النبوى الشريف .

جاء فى لسان العرب : « بدا الشىء يبدو ظهر ، وأبديتُه أنا أظهرته . . وبادى الرأى ظاهره . وتبادوا بالعداوة جاهروا بها . . ويقولون للرجل الحازم : ذو بَدَوات ، أى ذو آراء تظهر له ، فيختار بعضاً ، ويُسقط بعضاً »[٣] .

وجاء فى مفردات القرآن للأصفهانى : « بدا الشىء بدواً وبداءً ، أى ظهر ظهوراً بيِّناً ، قال الله تعالى : (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) . (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) . (فبدت لهما سوآتهما) . . »[٤] .

وجاءت كلمة (بدا) فى آيات من القرآن الكريم . قال تعالى :

---

(١) النهاية ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) النهاية ج ٣ ص ١٥٢ . وكذلك جاء الحديث فى مفردات القرآن للأصفهانى ص ٣٦٤ بلفظ (بدا) غير مهموز .

(٣) اللسان ج ١٦ ص ٦٩ . (٤) المفردات ص ٣٨ .

« وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » . الزمر — ٤٧ .

« وبدا لهم سيئات ما كسبوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » الجاثية — ٣٣ .

« ... كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً » . الممتحنة — ٤ .

« قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر » . آل عمران — ١١٨ .

« فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما » . طه — ١٢١ .

« تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » . الأنعام — ٩١ .

« إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » . القصص — ١٠

« يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك » . آل عمران — ١٥٤ .

« ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » . النور — ٣١ .

ومن هذه النصوص نفهم أن المعنى الغالب لكلمة (بدأ) هو فعل الشىء أولا والابتداء فيه والشروع فيه ، وأن معنى كلمة (بدا) هو الظهور والجهر والانكشاف .

***

وأما كلمة (الإسلام) فيكفينا فى التعرف إليها هذا النص من (مفردات القرآن) :

« .. والإسلام فى الشرع على ضربين : أحدهما دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللسان ، وبه يحقن الدم ، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، وإياه قصد بقوله : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا) . والثانى فوق الإيمان ، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدر ؛ كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فى قوله : (إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين) وقوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) وقوله : (توفنى مسلما) أى اجعلنى ممن استسلم لرضاك . ويجوز أن يكون معناه : اجعلنى سالماً عن أسر الشيطان ، حيث قال : (لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين) وقوله : (إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى منقادون للحق مذعنون له . وقوله : (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) أى الذين انقادوا من الأنبياء الذين ليسوا من أولى العزم لأولى العزم الذين يهتدون بأمر الله ، ويأتون بالشرائع .. »[1] .

ونفهم من هـذا أن الإسلام معناه الاستسلام والانقياد الظاهرى ، وقد يصحبه الاعتقاد والوفاء والاستجابة .

***

---

(١) مفردات القرآن ص ٢٤٠ .

وأما كلمة (غريباً) فقد جاء فى لسان العرب : « . . والغَرْب الذهاب والتنحى عن الناس . . والمُغْرِب الذى جاء غريباً طريفاً ، والتغريب النفى عن البلد . . ورجل غريب ليس من القوم . . والغريب الغامض من الكلام . . وأغربَ الرجل جاء بشيء غريب ، وأغرب الرجل فى منطقه إذا لم يبق شيئاً إلا تكلم به ؛ وأغربَ الفرسُ فى جريه وهو غاية الإكثار »(١) .

وجاء فى أساس البلاغة للزمخشرى : « غرَّبه أبعده ، وغرَّبَ : بَعُد . وإذا أمعنت الكلاب فى طلب الصيد قالوا : غرّبت . . وغرَّبت الوحشُ فى مغاربها : أى غابت فى مكانسها . . وتكلم فأغربَ إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره »(٢) .

وجاء فى مفردات القرآن للأصبهانى : « . . وقيل لكل متباعد غريب ، ولكل شىء فيما بين جنسه عديم النظير غريب ، وعلى هذا قوله عليه السلام : (بدا الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدا) . وقيل : العلماء غرباء ، لقلتهم بين الجهال . . والغَرْب الذهب لكونه غريباً فيما بين الجواهر الأرضية . . »(٣)

ومن هذه النصوص نفهم أن المعانى الغالبة لكلمة (غريب)

---

(١) اللسان ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) الأساس ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) مفردات القرآن ص ٣٦٤ و ٣٦٥ .

هى الابتعاد والتنحى ، والندرة وعدم النظير ، والقلة ، وعدم الألفة للشىء .

* * *

وأما كلمة (سيعود) فقد جاء فى القاموس المحيط : « العوْد الرجوع ، كالعودة والمعاد[١] » . وجاء فى مفردات القرآن : « العود الرجوع إلى الشىء بعد الانصراف عنه ، إما انصرافا بالذات ، أو بالقول والعزيمة . قال تعالى : (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . .)[٢] » .

ونفهم من هذا أن كلمة (سيعود) معناها : سيرجع إلى حال سابقة كان عليها أو شبيهة بها .

* * *

وأما كلمة (طوبى) فقد جاء فى لسان العرب : « . . . وطوبى شجرة فى الجنة ، وفى القرآن : (طوبى لهم وحسن مآب) وقيل : طوبى لهم : حسنى لهم . وقيل : خير لهم ، وقيل : طوبى اسم الجنة بالهندية . وقيل : فُعلى من الطيب ، والمعني أن العيش الطيب لهم ، وقيل : إن طوبى اسم الجنة بالحبشية . . . »[٣]

---

(١) القاموس ج ١ ص ٣١٨ .

(٢) المفردات ص ٣٥٧ .

(٣) اللسان ج ١ ص ٥٣ باختصار .

وفى مفردات القرآن : « وقوله : (طوبى لهم) قيل هو اسم شجرة فى الجنة ، وقيل : بل إشارة إلى كل مستطاب فى الجنة ؛ من بقاء بلا فناء ، وعز بلا زوال ، وغنى بلا فقر . . . »[١] .

وفى النهاية لابن الأثير : « . . . فيه : إن الإسلام بدا غريبا ، وسيعود كما بدا ، فطوبى للغرباء ؛ طوبى : اسم الجنة ، وقيل : هى شجرة فيها ، وأصلها فعلى من الطيب ، فلما ضمت الطاء انقلبت الياء واوا . وقد تكررت فى الحديث . وفيه : طوبى للشام ، لأن الملائكة باسطة جناحيها عليها ؛ المراد بها هنا فعلى من الطيب ، لا الجنة ولا الشجرة »[٢] .

ومن هذا نفهم أن معنى (طوبى) يدل على شىء طيب مستطاب ، سواء أكان فى الدنيا أم فى الآخرة ، وسواء أكان هذا الشىء هو الجنة أم شجرة فيها .

***

بعد هذه الجولة اللغوية التى تعرفنا فيها إلى معانى الألفاظ الواردة فى الحديث نستطيع أن نتساءل :

---

(١) المفردات ص ٣١٢ .

(٢) النهاية ج ٣ ص ٤٦ ، ومن أمثلة ورود (طوبى) فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن هدى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافا وقنع » والكفاف بوزن العفاف ما يكف الحاجات ويدفع الضرورات .

ما هو المعنى الذى نفهمه من ذلك الحديث النبوى الشريف ؟.

يمكن أن نقول مع الإمام ابن رجب — كما سيأتى تفصيله — إن معناه هو أن الناس قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم كانوا على ضلالة عامة ، فلما جاءهم بالإسلام لم يستجب له إلا أفراد قلائل ، ولقى المسلمون حينذاك ألوانا من العذاب والهجرة ، فكانوا حينئذ غرباء ؛ ولما عز الإسلام بعد الهجرة كثر الداخلون فيه ، وتساندوا وتعاونوا ؛ وظل الأمر كذلك حينا من الزمن ، ثم ظهرت بين المسلمين فتن الشهوات والشبهات ، فاتخذها الشيطان وسيلة لإضلال الكثيرين ، حتى قل المتمسكون بدينهم ، وصاروا كالقابض على جمرة النار ، فرجعوا كما كان المسلمون الأولون غرباء .

وفى هذا المعنى يقول ابن الأثير فى النهاية :

« إن الاسلام بدا غريبا وسيعود كما بدا ، فطوبى للغرباء ؛ أى إنه كان فى أول أمره كالغريب الوحيد الذى لا أهل عنده ، لقلة المسلمين يومئذ ، وسيعود غريبا كما كان ، أى يقل المسلمون فى آخر الزمان ، فيصيرون كالغرباء ، فطوبى للغرباء ، أى الجنة لأولئك المسلمين الذى كانوا فى أول الإسلام ، ويكونون فى آخره ، وإنما خصهم بها لصبرهم على أذى الكفار أولا وآخرا ، ولزومهم دين الإسلام »[١] .

---

(١) النهاية ج ٣ ص ١٥٢ .

ويصح أن يكون المعنى : إن هذا الإسلام أخذ يسير وينتشر بين قوم غرباء عن مهبطه ومنزله الأول وهو مكة ، فإن أهل مكة قد تنكروا للإسلام فى أول الدعوة ، وآذوا الرسول إيذاء شديدا ، حتى تربصوا به الدوائر ، وتربصوا به ريب المنون ، بل واجتمعوا على قتله ذات ليلة ، فأعلمه الله وأنجاه إلى المدينة .

وفى المدينة كان الأنصار الذين سعت طلائعهم فى بيعة العقبتين الأولى والثانية لتلقى دعوة الإسلام والاهتداء بأشعته ؛ وبأيدى هؤلاء الأنصار مع مَن اصطفاهم الله من أهل مكة - وهم المهاجرون — ساد الإسلام وعز وانتشر ، مع أنه كان منتظراً أن ينصر الإسلامَ أولئك القوم الذين شرف الله حماهم بإهباط وحيه فيه ؛ ولكن هكذا شاءت إرادة الله أن ينصر الإسلامَ أهلُ المدينة وهم غرباء نوعا ما عن مهبطه الأول .

وكذلك سيصير الإسلام فى آخر الزمان — ولعله هذا الزمان — غريبا بين أهله ، وبين المنتسبين إليه ، وبين الآكلين ما شاءوا باسمه ؛ وسينصر هذا الدين قومٌ غرباء لم يكونوا منتسبين إليه من قبل ، ولم ينشأوا فى دياره من قبل .

وكأن هذا إنذار — أى إنذار — من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته أن يحذروا وقوع تلك الغربة للإسلام على أيديهم

حتى لا يحرموا من نعمة الاستمساك به ، والغيرة عليه ، والدعوة له ، والدِّفاع عنه .

***

ويصح أن يكون المعنى إن هذا الإسلام قد (بدا) أى ظهر وعلا وانتشر بصورة عجيبة غريبة ، لأن المدة التى استغرقها فى انتشاره مدة قليلة تمت فيها أعمال جليلة خارقة للعادة على أيدى المسلمين . .

نعم إن الإسلام قد لقى معارضة وإنكاراً وكفرانا فى أول الأمر ، ولكن الناس بعد ذلك دخلوا فيه أفواجاً ، وماهى إلا سنوات بعد الهجرة ، حتى كانت خيل المسلمين تشرِّق وتغرب ، وتخرج من نصر إلى نصر ؛ ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يوم الهجرة ومعه صديقه الوحيد أبو بكر ، ولكنه بعد سنوات عاد إلى مكة فاتحاً منتصرا ، ومن حوله عشرة آلاف جندى من جنوده المؤمنين ؛ وما كاد يفتتح مكة ، ويحطم الأصنام ، ويعفو عن قريش ، ويهتف : الحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . . . حتى جاءت الأفواج بعد الأفواج تدخل فى دين الله الذى عز وغلب .

يقول ابن هشام فى السيرة النبوية :

« قال ابن إسحق : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ؛ ضربت إليه وفودُ العرب من كل وجه .

قال ابن هشام : حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع ، وأنها كانت تسمى سنة الوفود .

قال ابن إسحق : وإنما كانت العرب تربَّص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادةُ العرب لا ينكرون ذلك ؛ وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوَّخها الإسلام ، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله — كما قال الله عز وجل أفواجا ، يضربون إليه من كل وجه يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا[1] » .

ووفدت الوفود من كل جهة على الرسول صلوات الله عليه ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام على هامش الروض الأنف ج ٢ ص ٣٣٣

خاضعة خاشعة ، تعلن إسلامها وتبدى طاعتها ، وتأهبت كتائب الإسلام لحمل رسالته إلى المشارق والمغارب ، وأزال المسلمون ما كان من طغيان الأكاسرة والقياصرة ، ورفرفت راية (لا إله إلا الله) فى أرجاء المعمورة ، مما كان مثاراً للعجب والإعجاب والاستغراب .

ثم طال الأمد على المسلمين ، فقست قلوبهم ، وتفرقوا فذهبت ريحهم ، وشغلتهم الشهوات والشبهات ، فعطلوا دينهم ، وأهملوا حقوق ربهم ؛ ولكن الله سيعز دينه ، وسيأتى بمن ينصره ، وستكون نصرة الإسلام نصرة عجيبة غريبة فى الزمن الأخير ، كما كان انتشاره فى المرة الأولى ، غريباً عجيباً أثار الدهشة والاستغراب .

والخير كل الخير لهؤلاء الذين سينصر الله بهم دينه ، وسيعز بهم كلمته ؛ إنهم سيكونون غرباء أقلاء ، ولكنهم يأتون بالأمر الغريب القليل النظير .

* * *

ويصح أن يكون المعنى — على بُعد — إن هذا الإسلام قد فاجأ عقول من جاءهم بالأمور الغريبة التى لم يهضموها ولم يفهموها ، لأنهم كانوا فى جهالات وضلالات ، ولأنهم كانوا فى فوضى وإباحية ؛ وهو قد جاء بالعلم والهدى والنظام والفضيلة ، فلم يرحبوا به ، ولم

يتقبلوه ؛ ولـكن الله هيأ له من بين أولئك الناس حملة أحسنوا رعايته وفهمه ، وسيعود الإسلام عند انتشار الجهالة والضلالة والشهوة والبغى غريبا غير مفهوم ، عسيرا على المجرمين غير مهضوم ، فطوبى للغرباء الذين يدق ذوقهم على أذواق الجماهير ، وتعلو عقولهم على عقول الرعاع ، وتسمو حكمتهم على سفه السفهاء ؛ أولئك هم الغرباء . .

* * *

ومهما يكن من فهمنا لمعنى هذا الحديث ، فإن المسلّم به الآن أن الإسلام غريب بين أهليه ، وبين غير أهليه ، وهو غريب فى بلاده ، غريب فى غير بلاده .

وقد صار لزاماً على المسلمين أن يرجعوا إلى ربهم ودينهم ، وأن يعرفوا إسلامهم من جديد معرفة اليقين والإيمان ، ومعرفة العمل والإحسان ، ومعرفة الإجادة والإتقان ، ومعرفة الجهاد بالبيان ، ومعرفة الجهاد بالسنان ، وعليهم بعد معرفتهم له من جديد أن يعرّفوا الآخرين به ، وأن يهدوهم إلى نوره بالحـكمة والموعظة الحسنة .

إن للإسلام مهمة لا يستقر للعالم سلام أو نظام بدونها ، وإن الله قد شرف المنتسبين إلى الإسـلام ، بتحميلهم هذه المهمة ، وإيداعهم تلك الأمانة ، فهل عرف المسلمون ذلك ؟ وهل آن لهم

أن يُخرجوا الإِسلام من غربته ليكون معروفاً ، فيعزوا به حين يعزونه ؟! . . .

إننى أثبت هنا خطبة مناسبة عن « مهمة الإِسلام » ألقيتها بمسجد المنيرة فى ٣٠ ربيع الثانى سنة ١٣٦٩ هـ :

ما هى مهمة الإِسلام !؟

أحمد الله حمداً يكافىء فضله العميم ، ويليق بسلطانه العظيم ، ويناسب خيره الكريم ؛ سبحانه هو الله نور السموات والأرض ، وفالق الحب والنوى ، ومحيي الأرض بعد موتها ، وبارىء النفس ومزكيها ، وهو بكل شىء عليم .

نشهد أن لا إله إلا أنت ، الأمر كله منك وإليك ، والاعتماد كله بك وعليك : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ؟ ونشهد أن محمدا عبدك ورسولك ، بعث الأمة بفضلك من رقادها ، وأصلح البشرية بعنايتك من فسادها ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله شجرات الوجود المثمرة ، وأصحابه النجوم الساطعة النيرة ، وأتباعه العصبة الطاهرة الخيِّرة : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

افرضوا أن سائلا تقدم إليكم وطلب منكم — وأنتم مسلمون —

أن تحددوا له ماذا كانت مهمة الرسالة المحمدية فى العالم بجملة واحدة فماذا يكون الجواب ؟ وهل يستطيع كل منا أن يسارع بالرد على ذلك السؤال فى حكمة وصواب ؟ أو أن الموقف سيستدعى حيرة فى أول الأمر ، لطرافة السؤال ، ولغرابة التحديد بجملة واحدة ، ثم يستدعى الموقف بعد هذا استعراضا وبحثا وتنقيبا وتركيزا ؟ .

نعم إن الموقف هنا سيحتاج إلى التفات وبحث وجهد ، وخصوصا من الآلاف المؤلفة الذين ينتسبون إلى الإسلام ويتسمون بسماته ، ويضاعفون أعداد أبنائه ، ولـكنهم مع الحسرة الممضة المرة لا يعرفون عن الإسلام شيئا ذا بال ، ولا يفقهون من تعاليمه ما يشفى الغليل ؛ حتى استدعانا ذلك الجهل المعيب من المسلمين للإسلام أن نهتف عدة مرات :

ما أحوج الإسلام إلى التبشير به ، لا بين الغرباء عنه فحسب ، بل بين أبناء الإسلام أولا ، لأنهم أحق من غيرهم بتقديم ذلك التبشير ! . .

لقد سألنى شخص غير مسلم هذا السؤال ، فتأنيت مفكرا ، ثم أجبت :

« كانت مهمة الإسلام فى العالم هى تجديد ميلاد الإنسان ، والزمان ، والمكان ، والأديان » .

وتطلع إلىَّ السائل ، كأنه يرقب منى تفصيلا لما أوجزت ، وتحليلا لما ركزت ؛ فقلت :

نعم : كان الإسلام « تجديداً لميلاد الإنسان » ، فقد كان الإنسان قبل الإسلام ميت الأحياء ، لا يحس بكيانه ، ولا يؤمن بشانه . وكيف يحيا وهو مسترقٌّ للجبارين من الرؤساء ، مستذل لخسيس الرغبات والأهواء ، مستعبَد لخرافات الوثنية والإشراك ، تائه فى أوهام الأباطيل والضلالات ؟ . .

لا ينتفع بعقله لأنه مغلق معطّل ، ولا ينتفع بجسمه لأنه عليل محطّم ، ولا ينتفع بقلبه لأنه غليظ محجب ؛ فلما جاء الإسلام العظيم بهديه الحبيب ونوره العجيب ، أحيا الإنسان من مواته ، ومكن له من الانتفاع بحياته .

وكيف لا وقد جمَّله بالعلم الغزير النافع ، والتقويم الجسدى السليم ، والخلق المحمدى الكريم ، ورفع شأنه فى الوجود ، فذكره بأنه خليفة الله فى أرضه ، وأفضل المخلوقات عند ربه : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ؛ « والتين والزيتون ، وطورسنين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين » ؟

« يا أيها الإنسان ، ما غرَّك بربك الكريم الذى خلقك فسوَّاك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركَّبك » ؟ ! . .

وبهذا التعليم والتقويم والتكريم خُلق الإنسان على يد الإسلام خلقاً جديداً ، بدأت به الدنيا تاريخها من جديد ! . .

* * *

وكان الإسلام « تجديداً لميلاد الزمان » ، فقد كان الزمان قُبيل الإسلام — فى ضلالات الجاهلية وعمايات الإنسانية — حملا ثقيلا ينوء به كاهل الإنسان ، وكان الناس يضيقون بأعمارهم ، وأعمارُهم تضيق بهم ، فكلٌّ من الاثنين يبغى الفرار من صاحبه ، لو استطاع إلى ذلك سبيلا . .

وكان الزمان مسلَّطاً على أهله كأنه لا يتحرك ولا يتغير ، فهو أشبه شىء بالكلكل الرابض على صدور أهليه ، لا يتخفف ، ولا يتلطف ، ولا يريم .

وكثيراً ما كان الإنسان يضيق بهذا الزمان ، فينفقه إنفاق السفهاء فى المآثم والمناكر والسيئات ، أو يتخلص منه بالغفلة السادرة ، أو الانتحار السريع ، أو التقاتل المبيد ؛ فلما أشرق الإسلام المجيد بضوئه الساطع علَّم الناسَ أن للزمان حرمة ، وأن للوقت كرامة ، وأنه كالسيف : إن لم تقطعه قطعك ؛ وأن أى يوم

يمر من حياة الإنسان دون أن يستفيد منه مُفيداً ، أو يحصِّل فيه علماً جديداً ، أو يعمل فيه عملا مجيداً ، أو يدَّخر فيه عند ربه خيراً باقياً ، فليس ذلك من عمره ، بل هو نكبة تضاف إلى سيئاته ، وثقل يلقى على أعماله وأعبائه ؛ وأن المرء سيُسأل بين يدى الحق تبارك وتعالى عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ؛ فمن الواجب إذن على المرء — كما ينادى الإسلام — أن يأخذ من شبابه لهرمه ، ومن صحته لمرضه ، ومن حياته لموته ، فما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وحينئذ انطلق الإنسان المسلم فى أنحاء الكون وأرجاء المعمورة عاملا ناصباً جاداً مجاهداً مجتهداً ، قد شغلته فضائل الأعمال ومكارم الفَعال وعظائم الأمور عن لهو الفراغ وباطل التضييع ؛ وبذلك سعدت البشرية بعد شقاء ، وعمرت الدنيا بعد خراب ، وسمت البشرية بعد انحطاط ، ورأينا موكب البشرية يتابع فتوحه فى كل ميدان ! . .

* * *

ولقد كان الإسلام العظيم « تجديداً لميلاد المكان » ميلاداً

تطهرت به الأرض التى بارك الله فيها ، وقدَّر فيها أقواتها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، حتى أصبحت خليقة بأن يسرى فيها الصالحون والصدِّيقون والشهداء ..

فقد كانت أغلب بقاع الأرض قُبيل الإسلام الحنيف الطهور تفيض بالإثم ، وتنبت بالعهر ، وتحتشد بالأصنام والأوثان والأزلام ، وتسيل بأنهار الخمر وجداول الدماء ، وتتسفل بحلقات الهجاء والميسر والتفاخر الكاذب ، ويتطاير عِثيرها هنا وهناك ممزوجاً بالفحش والنُّكر ، وتتمزق أحشاؤها كل حين بشرعة البغى والطغيان ؛ فلا ملْكية تُحترم ، ولا حقوق تصان ..

فلما جاء الإسلام أعاد ميلاد الأرض ميلاداً كريماً تحفه الطهارة والبراءة والصفاء ، فإذا بوجه الأرض يشرف بجباه الساجدين ، ويتطهر مرتوياً بدموع الخاشعين ، وتهتز أرجاؤها بابتهال الراجين وحلقات الذاكرين ، الذين تحفهم الملائكة ، وتغشاهم الرحمة ، وتنزل عليهم السكينة ، ويذكرهم الله فيمن عنده من أهل الملأ الأعلى !..

وإذا بالإسلام يذكِّرنا بحرمة المكان ، فيتحدث عن البلد الحرام ، وعن المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ، وإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يزكِّى هذه الأرض ، ويرتفع بشأنها عن أدناس الناس وأوساخ البشرية ، فيجعلها له ولأهله ولأتباعه مُصلى

ومسجدا ، ويجعل مادتها طيبة وصعيدها نقياً : « جُعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً » . وينص على أنها مصدر من مصادر الخير والرزق والبركة ، حتى يكرِّمها الناس ويُعنوا بشأنها ، ويرفعوا مقدارها ، ويحرصوا على تطهيرها ، مادامت مصدرَ نعمة ومحلَّ بركة فيقول : «التمسوا الرزق فى خبايا الأرض» ؛ ويذكِّر بحرمة هذه الأرض وخلوصها لمالكها ، ويحذِّر من الاعتداء عليها ، أو الاستبداد بها ، أو سلبها من أهليها ، فيقول : «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حق خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » .

وإذا بكل مسلم تقيٍ ذَكور يردد فى دعائه بشأن المكان الذى يقيم فيه هذه العبارة : اللهم واجعل هذا البلد آمنا مطمئنا ، سَخاء رَخاء ، وسائر بلاد المسلمين ! ..

***

ولقد كان الإسلام العظيم « تجديداً لميلاد الأديان » ، لا بمعنى أنه ناقضها أو أتى بسواها ، فالدين الإلهى واحد منذ نزل : « إن الدين عند الله الإسلام » ؛ وما كان نبى الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام بِدْعاً من الرسل ، وما كان إلا خاتم النبيين . .

وإنما جدَّد الإسلام ميلاد الأديان بمعنى أنه أحياها من جديد ، وأعاد أصولها صحيحة سليمة كاملة إلى أيدى الناس ؛ فقد وصلت

الأديان قبيل الإسلام إلى حالة مؤسفة من التحريف والتبديل ، وبَسَطَ الأحبارُ والرهبان والكهان وأَكَلَةُ الدنيا بالدين أيديَهم الأثيمة الباغية فى كتب الله وتراث السماء وأمانات الأنبياء ، بما شاء لهم الهوى من التغيير والكتمان والحذف والافتراء ، حتى لم يبق على وجه الأرض يومئذ دين سليم بعيد عن هذا التطاول ، فجاء الإسلام مصحِّحاً ومتمِّماً ومكملا ؛ ولذلك نرى الحق تبارك وتعالى يمتن بذلك على عباده ، حيث يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » ويدعونا فى صراحة إلى الإيمان بما سبق من رسالات ورسل ، وما سلف من كتب وعقائد ، فيقول : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانَك ربَّنا وإليك المصير » .

ولقد كان الإسلام الحنيف فى هذا الموقف الفاصل صريحاً رفيعا ساميا ، هَدَى الإنسان إلى طريق العبادة الصحيحة ، وأرشده إلى ربه الأحد الأعلى الذى لا يحجبه عنه شىء ، ولا يحيط به ستار ، ولا يحتاج إلى وسيط أو شفيع ، وليس له والد ولا ولد ولا صاحبة ولا قرين ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . . .

وبذلك ثبّتَ الإسلام إلى الأبد دعائم التوحيد الخالص الصافى الصحيح ، الذى لا لبس فيه ولا إبهام : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيُّه السمواتِ والأرضَ ، ولا يؤوده حفظُهما وهو العلى العظيم » . . .

* * *

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا والله هو الإسلام الذى ندعو إليه ، ونحمل أنفسنا والناس عليه هذا هو الإسلام الذى يقرع أسماعَنا الحديثُ عنه فى الصباح والمساء ، وفى كل زمان ومكان . . هذا هو الإسلام الذى يلاقى رجاله الأحرار الصادقون المخلصون فى سبيل دعوته ونصرة فكرته وتطبيق شريعته ما يلاقون فى كل صقع وفى كل فترة من عنت ورهق ؛ ومع ذلك لم ييأسوا ولم يقنطوا ، ولا يزالون يرجون ويأملون أن ترعوى الجماهير ، وأن يستجيب الناس لهدى الله الذى يخرجهم به من الظلمات إلى النور ؛ وكلما اشتدت من حولهم دواعى اليأس ذكروا قول ربهم : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يُرد بأسنا عن القوم المجرمين » . . .

وهذه هى رسالة الإسلام التى يجاهد المجاهدون من أبنائه لكى تسود الإنسانَ والزمان والمكان والأديان ؛ فهل لى أن أسائلكم : أين أنتم من صفوف جنديتها وخطوط جهادها ؟ أو ماذا قدمتم من أجلها وأجل نصرتها ، من مالكم أو عملكم أو كلامكم أو جهودكم ؟ أو ماذا أقمتم من دعائمها وأركانها حتى يحق لكم الدخول فى حماها والانتساب إليها ؟ . . . أين أنتم من الشموع التى تحترق فى سبيل نصرتها وسيادتها ؟ . . أين أنتم من المصابيح التى يترنح سناها ويتراوح ذات اليمين وذات الشمال بفعل الأعاصير وتتابع النكبات ؟ أسألكم بربكم أن تفكروا طويلا فى هذا ، وأن تحاسبوا أنفسكم حسابا عسيرا على هذا ؛ ولنذكر فى نهاية المطاف أننا قد عرفنا ما هو الإسلام ، وبقى علينا أن نكون مسلمين حقا ، وأن نجذب الناس إلى هذا الإسلام

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . .

* * *

هذا ما قلتُه منذ سنوات ، ومن خلاله يتبين مدى الغربة التى يعانيها الإسلام الصحيح بين أهله والمنتسبين إليه الآن .

أما بعد ، فقد رأيت من الخير أن أقدم إلى أبناء الإسلام حديثاً عن غربة الإسلام ، يجمع بين الماضى والحاضر ، وبين غيث السلف ورذاذ الخلف ؛ واقد كتبتُ عن ابن رجب الحنبلى ترجمة أظنها وافية ، ثم قدمت لبحثه عن غربة الإسلام بما سبق من حديث أرجو أن يكون مقبولا ، ثم عُنيت بضبط ما كتب ابن رجب وتنسيقه ، وشرح ماغمض من عبارته ، والترجمة للأعلام والأئمة الذين يذكرهم مع التعليق ببعض النصوص التى توسِّع أفق الموضوع ، وتخريج الأحاديث ، وجعلت كلام ابن رجب بحروف كبيرة ، وتعليقاتى بحروف صغيرة ، ولا شك أن الذين جربوا مثل هذه المهمة العلمية يدركون أنها أشق من التأليف ابتداء .

أسأل الله جل جلاله أن ينفع بهذا العمل ، وأن يثيب عليه مَن شارك فيه سابقاً ولاحقاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

« القاهرة »

أبو حازم

أحمد الشرباصي

التعريف بابن رجب

إمام من الحنابلة :

ابن رجب الحنبلى علَم من أعلام القرن الثامن الهجرى ، وكم فى القرون الإسلامية السابقة من فحول وأعلام ؛ وإمام من أئمة دمشق الشام ، وكم شهدت دمشق العظيمة من أئمة وسادات ؛ وشيخ من شيوخ الحنابلة ، وهم أصحاب ذلك المذهب المنسوب إلى الإمام الجليل أحمد بن حنبل الشيبانى ؛ والحنابلة — فوق علمهم وفقههم وتراثهم الفكرى — قوم لهم مبادئهم ومناهجهم المتصلة بالعبادة والزهد ، والدعوة إلى الله ، والقوة فى الدين ، والغيرة على الحرمات ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، دون أن يخشوا فى الله لومة لائم ، أو يخافوا طغيان طاغ أو بطش جبار ؛ ولا عجب فإمامهم ابن حنبل قد ضرب لهم المثل ، وجلَّى أمامهم القدوة من نفسه خير تجلية .

ويصف شيخُ الإسلام أبو الوفاء بن عقيل المتوفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة جماعةَ الحنابلة فيقول :

« هم قوم خشن ، تقلصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجدّ ، وقلّ عندهم الهزل ،

وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا عن الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجا عن التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة ، فلم يدققوا فى العلوم الغامضة ، بل دققوا فى الورع ، وأخذوا ما ظهر من العلوم ؛ وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها ، من خشية باريها . . . » .

كنيته وألقابه :

وكنية ابن رجب هى (أبو الفرج) ، ولم نجد فيما قرأنا عنه كنية أخرى له ؛ وأما الألقاب التى أضفاها عليه المؤرخون والمترجمون فكثيرة ، تنبئنا بالمكانة السامية التى كان يحتلها هذا الرجل ، وبالآثار العظيمة التى خلّفها ، وبالذكر الحميد الذى بقى له فى التاريخ ! . .

وهذه هى الألقاب التى رأيناها فى حديث المؤرخين عنه :

فهو زين الدين ، وجمال الدين ، وزين الملة والشريعة والدنيا والدين ، وجمال المصنفين ، وزين العابدين ، وواعظ المسلمين ، ومفيد المحدثين ، وعديم النظير ، وشيخ الإسلام ، وواحد الأعلام .

نسبه :

ونسبه هو : الإمام الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ، ابن الإمام المقرئ المحدث الفقيه العالم شهاب الدين أحمد ، ابن الإمام

المحدث أبى أحمد رِجب ، ابن حسن — أو الحسن — ابن محمد ابن أبى البركات مسعود السلامى .

وهو مشهور بين المؤرخين والمحدِّثين بابن رجب الحنبلى البغدادى نزيل دمشق .

أوصافه التاريخية :

لم يكتف الذين كتبوا عن ابن رجب بتلك الألقاب السابقة التى أُطلقت عليه ، أو عُرفت له ؛ فوصفوه بجملة أوصاف تزيدنا معرفة بمرتبة الرجل وجلالته ؛ وهذه هى الأوصاف التى وجدناها فى عبارات المؤرخين لابن رجب :

ابن رجب الحنبلى هو : الشيخ العالم الإمام ، الحبر البحر الهمام ، العلامة الفقيه الأصولى ، الحافظ الحجة الثقة ، الواعظ المحدث الشهير ، القدوة الورِع الزاهد ، البركة العامل الكامل ، العمدة البدر .

أسرته :

أسرة ابن رجب أسرة بغدادية ، وهو قد ولد ببغداد ، وقضى بها أيام طفولته ؛ وقد كانت أسرة ابن رجب أسرة علم وفقه وحديث ، وحسبنا للتدليل على ذلك أن نتذكر ما سبق من وصف التاريخ لوالده بأنه « الإمام المقرئ المحدث الفقيه العالم شهاب

الدين أحمد » ؛ وما سبق من وصف التاريخ لجده القريب بأنه « الإمام المحدث أبى أحمد رجب » .

وقد وقف نسب ابن رجب عند جده الفقيه العالم أبى البركات البغدادى السلامى المتوفى سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة ؛ ولهذا الجد الأخير لابن رجب المعروف لنا ابن اسمه محمد ، وحفيد اسمه الحسن ، وللحسن هذا ولد اسمه رجب ، وكنيته أبو أحمد ، وإليه ينتسب أبو الفرج ابن رجب — صاحب الترجمة — فيقال عنه فى الغالب : « ابن رجب الحنبلى » .

ووالد ابن رجب هو شهاب الدين أبو العباس أحمد المتوفى سنة ثلاث — أو أربع — وسبعين وسبعمائة ؛ وكان خيِّراً متدينا عفيفا ، يقرأ بالروايات ، وجلس للإقراء ، وانتفع الناس به .

وما دامت هذه هى أسرة ابن رجب ، وتلك مكانتها العلمية والدينية ، فلا عجب حين نرى ابن رجب ينشأ وهو محاط بجو علمى دينى تعبدى ، فيكسب من هذا الجو ، ومن المواهب الإلهية له ، ومن العوامل الأخرى علما ، وفهما ، وزهدا ، وتوسعا فى البحث والتأليف ، فإن هذا الشبل من ذاك الأسد .

ولادته :

حدَّد الإمام ابن حجر فى كتابه (الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة) ميلادَ ابن رجب بالشهر ، فذكر أنه وُلد فى شهر

ربيع الأول سنة ست وسبعمائة ، وحدده العليمى فى طبقاته باليوم والشهر ، فذكر أنه وُلد يوم السبت خامس عشر ربيع الأول سنة ست وسبعمائة .

ولكن ابن حجر فى كتابه « إنباء الغمر بأبناء العمر » الذى لا يزال مخطوطا — ومنه نسخة بالمكتبة الأزهرية — يقول إنه ولد ببغداد سنة ست وثلاثين وسبعمائة ؛ وقد يؤيد هذا القول أن العليمى قال عن ابن رجب: « قدم مع والده من بغداد إلى دمشق وهو صغير، سنة أربع وأربعين وسبعمائة » ، وهذا معقول ، لأن عمر ابن رجب حين قدومه ذاك يكون ثمانى سنوات ، وهو عمر يصلح للوصف بالصغر ؛ كما يؤيده ما ذكره ابن رجب عن نفسه من أنه سمع دروس شرف الدين سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وكان صغيرا .

أخلاقه :

كان ابن رجب كما يروى التاريخ شيخا فاضلا ، زاهدا ورعا ، يميل إلى العزلة والانفراد ، فلا يخالط أحدا ، ولا يتردد على أحد ، ويظهر أن خبرته بعيوب الناس ، ورغبته فى البحث والاطلاع ، وهمته فى التأليف والتصنيف ، أوجدت عنده هذه الحالة ، ويضاف إلى ذلك أنه كان متعبدا متهجدا ، والعبادة والتهجد يناسبهما عند أصحابهما التوحد والتفرغ غالبا .

ويلوح أن ابن رجب كان رجلا خفيف الظل رقيق الحاشية عذب الحديث جذاب العبارة حلو الشمائل دمث الأخلاق ، ولذلك مالت القلوب بالمحبة إليه ، وأجمعت الفرق عليه ، وكانت مجالسه للوعظ والتحديث تذكرةً للقلوب صادعة ، وللناس عامة مباركة نافعة .

وكان لا يعرف شيئا من أمور الناس ، ولا يتردد إلى أحد من ذوى الولايات ؛ وهذا مما يدل على بعد الهمة ونبل النفس .

ولعكوفه على الدراسة والتأليف ، ورغبته عن الاختلاط استقر بالمدرسة الحنبلية لا يفارقها ليلا ولا نهارا ، وقد كان يسكن بالمدرسة السكرية بالقصاعين .

أولاده :

كان لابن رجب أولاد لم تنبسط صفحات التاريخ للحديث عنهم ، ويغلب على الظن أنهم قد استفادوا من علم والدهم وتربيته ، ويذكر المؤرخون من هؤلاء الأولاد ابنه زين الدين عبد الرحمن ، قدم معه دمشق سنة أربع وأربعين وسبعمائة .

الذين سمع منهم :

لقد درس ابن رجب الحديث والفقه وغيرهما من العلوم ، وقد

مهر الحديث رجالا وعللا ، وطرقا واطلاعا على المعانى ؛ وقد سمع من جماعة من الأجلاء :

سمع فى دمشق من محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز ، وإبراهيم بن داود العطار .

وسمع فى مصر من صدر الدين أبى الفتح الميدومى (أو المندومى) وأبى الحرم محمد بن القلانسى ، وجماعة من أصحاب ابن البخارى .

وسمع فى مكة من الفخر عثمان بن يوسف . وكذلك سمع من خلق من رواة الآثار .

وكذلك رافق الشيخ زين الدين العراقى فى السماع كثيرا ، ولازم مجلس الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية إلى أن مات ، وقرأ القرآن بالروايات ، وأكثر عن الشيوخ ، وخرج لنفسه مشيخة مفيدة .

وقد أجازه ابن النقيب والنووى ، وهذا النووى غير النووى الحافظ المشهور ، أبى زكريا يحي بن شرف ، المتوفى سنة ست وسبعين وستمائة .

ونفهم من سماع ابن رجب أنه قد رحل إلى مصر ومكة ، ويظهر أن رحيله هذا كان فى صدر شبابه ، لأن التاريخ يعبر عن ذلك بأن أباه رحل به إلى مصر وإلى مكة .

قال ابن حجى عن ابن رجب : « أتقن الفن — أى فن الحديث —

وصار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق ، وتخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق » .

كتب ابن رجب :

لقد فتح الله على ابن رجب فى التأليف فتحا مباركا مبينا ، فكثرت كتبه وتعددت مؤلفاته . وكذلك كان أعلام سلفنا رضوان الله عليهم ، فقد توافر لهم العقل والفهم والبيان ، كما توافرت لهم الرغبة والهمة والعزيمة والإخلاص ، كما تخففوا من أثقال الحياة وأعراضها ، فكانت أيامهم فسيحة مباركة مليئة بالإنتاج والعمل ، فلا غرابة إذن حين نجد الواحد منهم يؤلف العشرات من الأسفار ، مما لا يستطيعه غيرهم ممن شُغلوا بالحياة وأطماعها .

وكتب ابن رجب تدور غالبا حول الحديث والفقه والوعظ ، وقد يكتب عن فضائل كبريات المدن وتاريخها كالشام والقدس ، أو يعرض لبعض مواقف السيرة كغزوة بدر .

ولابن رجب أسلوب سهل طيع سلس ، تراه يتناول موضوعه عادة بالتحليل والتقصى والإسهاب ، وقد يستطرد أحيانا ، ولكن استطراده ممتع لا يمل منه ؛ وتراه أحيانا يعمد إلى السجع وبعض المحسنات اللفظية ، ويظهر أن ذلك كان شائعا فى عصره ، ولكنه

لا يلتزم ذلك ، بل نراه أحياناً أخرى يتحلل من قيود السجع لينطلق متحدثاً بأسلوب الفقهاء أو المحدثين أو الباحثين .

وهو كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث والحكم والنصوص الصوفية والأبيات الشعرية القديمة فى كتابته ، وتشم منه شذا نزعة صوفية ، ولكنها نزعة معتدلة سليمة ، لا تشتط ولا تسرف .

وأعتقد أن كتب ابن رجب من خير ما يصلح للوضع بين أيدى العامة من قراء المسلمين ، كما أنها فى الوقت نفسه لا تنزل عن مستوى الخاصة من الباحثين ؛ وحسبك دليلا على ذلك كتابه (القواعد) الذى يعد سفراً جليلا فى الفقه الإسلامى .

ومن كتبه المطبوعة :

١ — ذيل طبقات الحنابلة .

٢ — شرح الأربعين النووية (أو جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم) .

٣ — شرح حديث ما ذئبان جائعان (طُبع مع كتاب جامع بيان العلم وفضله) .

٤ — اختيار الأولى فى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى .

٥ — الخشوع فى الصلاة .

٦ — فضل علم السلف على الخلف .

٧ — القواعد الفقهية .

٨ — رياض الأنس .

٩ — تحقيق كلمة الإخلاص .

١٠— نور الاقتباس فى مشكاة وصية النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس .

١١— اللطائف فى وظائف الأيام بطريق الوعظ .

١٢— كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة .

ومن كتبه التى لم تنشر :

١ — التخويف من النار ، والتعريف بحال دار البوار .

٢ — اختيار الأبرار .

٣ — الاستخراج لأحكام الخراج .

٤ — التوحيد .

٥ — رسالة فى معنى العلم .

٦ — أهوال يوم القيامة (أو أهوال القبور) .

وله كتب أخرى ذكرها ابن حميد أو ابن العماد منها :

١ — استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس .

٢ — الاستيطان فيما يعتصم به العبد من الشيطان .

٣ — البشارة العظمى فى أن حظ المؤمن من النار الحمى .

٤ — ذم الخمر .

٥ — ذم المال والجاه .

٦ — شرح البخارى — (وصل فيه إلى الجنائز ، وسماه فتح البارى فى شرح البخارى) .

٧ — شرح الترمذى .

٨ — المحجة فى سير الدلجة .

٩ — شرح حديث من سلك طريقا يلتمس فيه علما .

١٠ — العلم النافع .

١١ — الفرق بين النصيحة والتعيير .

١٢ — القول فى تزويج أمهات أولاد الغياب .

١٣ — الكشف والبيان عن حقيقة النذور والإيمان .

١٤ — كفاية أو حماية الشام بمن فيها من الأحلام .

١٥ — مسألة الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال وقبل الصلاة .

١٦ — نزهة الأسماع فى مسألة السماع .

١٧ — وقعة بدر .

عدم خشيته من الموت :

مما يدل على أن ابن رجب كان رجلا أُخرويا لا يهاب لقاء ربه أنه ذهب قبيل وفاته بأيام إلى حفار القبور ، وطلب منه أن يحفر له قبرا ، وأشار إلى المكان الذى اختاره لذلك ، قائلا : احفرلى

هنا لحداً . فأطاع الحفار ، ولما فرغ من الحفر نزل ابن رجب إلى القبر ، واضطجع فيه فأعجبه ، وقال : هذا جيد ... قال حفار القبور : فوالله ما شعرت بعد أيام إلا وقد أُتى به ميتا ، محمولا فى نعشه ، فوضعته فى ذلك اللحد .

وفاته :

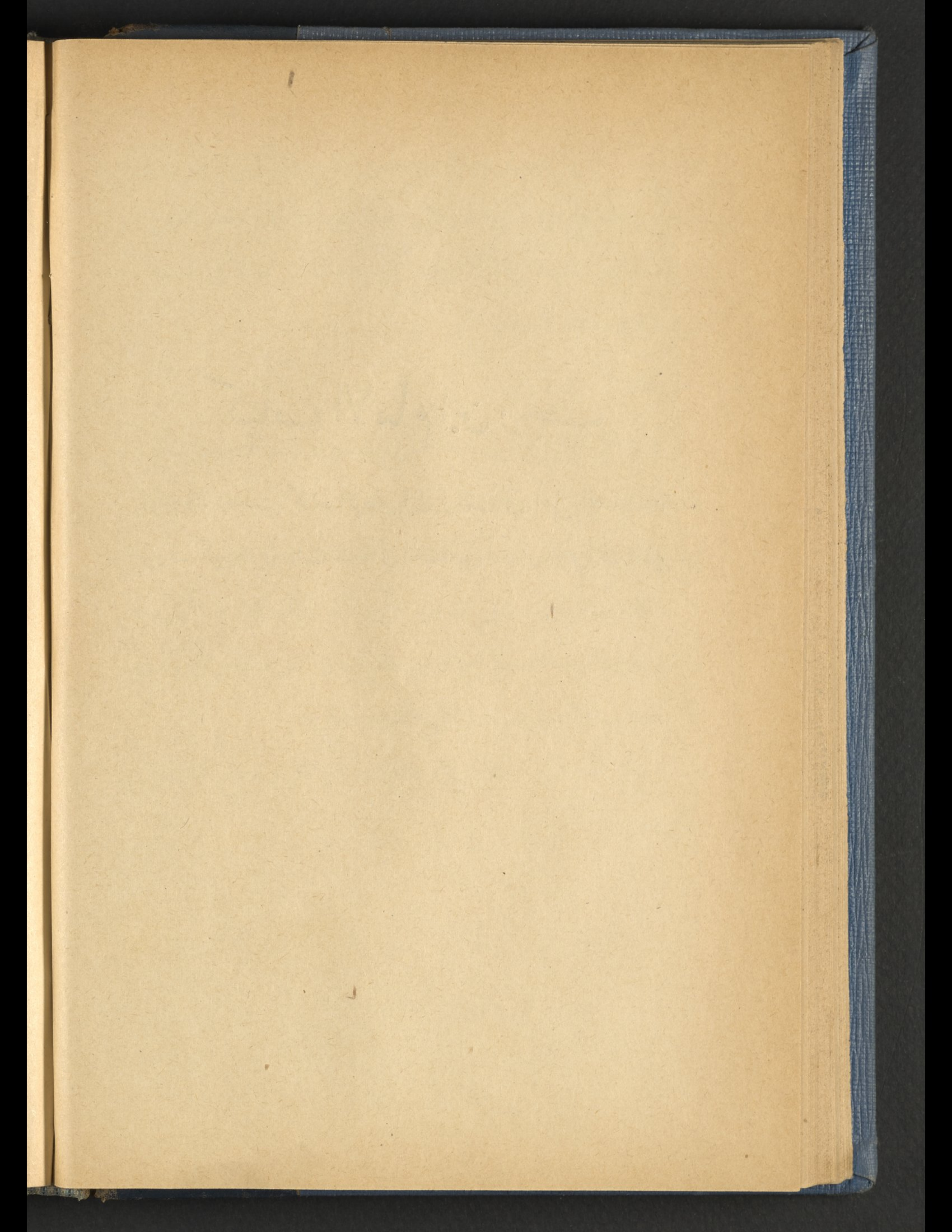
تُوفى الإمام ابن رجب سنة خمس وتسعين وسبعمائة وهو يهدف إلى الستين من عمره ، وقيل توفى فى رجب ، وقيل فى رمضان ، وقيل ليلة الاثنين رابع شهر رمضان .

وكان موته فى دمشق بأرض الحميرية ببستان كان يستأجره ، ودفن بمقبرة الباب الصغير بجوار قبر الشيخ أبى الفرج الشيرازى الذى كان يعجب به ابن رجب ؛ وقيل عند قبر معاوية .

أسبغ الله عليه سحائب رحمته ورضوانه ، ونفع المسلمين بآثاره وبيانه .

كتاب الامام ابن رجب

وقد جعلتُ كلامَ الإمام ابن رجب فى أعلى الصفحات ، بحروف كبيرة ، وجعلتُ تعليقاتى المختلفة فى أسفل ، بحروف صغيرة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، كما يحب ربّنا ويرضَى، وكما ينبغى لكرم وجهه وعزّ جلاله؛ وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّمَ تسليما.

خرَّج مسلمٌ [1]، فى صحيحه، من حديث

(١) هو الإمام الثقة الحافظ المصنِّف العالم بالفقه أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيرى النيسابورى، صاحب كتاب الصحيح، وأحد أركان الحديث، وُلد سنة أربع ومائتين، ورحل لطلب العلم إلى أنحاء متعددة، وسمع من الكثيرين، وروى عنه خلائق، وأجمعوا على جلالته وإمامته، وعلو مرتبته وحذقه فى صنعة الحديث، وكتابه بلغ الغاية فى حسن الترتيب وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان، والاحتراز من التحويل فى الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة، وتنبيهه على مافى ألفاظ الرواة من اختلاف فى متن أو إسناد ولو فى حرف، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلسين وغير ذلك، ولا نظير لكتابه فى هذه الدقائق كما يقول النووى، وهذا لايمنع أن يكون لصحيح البخارى ميزاته الأخرى؛ وقد سمع مسلم بالعراق وخراسان والرىّ، وله غير الصحيح كتب كثيرة، ومما قاله عن كتابه الصحيح: صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة.

وروى عن مسلم أنه كان صاحب تجارة بخان بحمس نيسابور، وكان له أملاك وثروة.

وتوفى رضى الله عنه بنيسابور، عشية الأحد ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب، سنة إحدى وستين ومائتين، وكان عمره خمسا وخمسين سنة.

أبى هريرة[١] ، رضى الله عنه ،عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« بدأ الإسلامُ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطُوبَى للغرباء[٢] » .

---

(١) هو الصحابى الجليل حافظ الصحابة أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى — على المشهور — وقد اختلفوا فى اسمه واسم أبيه اختلافا كثيرا ، فقيل : عبد الرحمن بن غنم ؛ وقيل عبد الله بن عائذ ؛ وقيل : عبد الله بن عامر ؛ وقيل : سكين بن رزمة ؛ وقيل : يزيد بن عشرقة . . . إلخ ، والمشهور الأول . كانت له هرة صغيرة فكنوه بها ؛ وكان أكثر الصحابة رواية للحديث ؛ وقال الشافعى : « أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره » . وأسلمت أمه ، وقصة إسلامها فى صحيح مسلم ؛ وروى أن أبا هريرة قال للرسول : يارسول الله ، ادع الله أن يحبِّبنى الله أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم حبِّب عُبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهما المؤمنين ؛ قال أبو هريرة : فما خلق الله مؤمنا يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى .

أسلم أبو هريرة عام خيبر سنة سبع ، وكان فقيراً يخدم الناس قبل صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنه ، وكان عابداً خائفاً من ربه ، ومع ذلك كانت فيه دعابة ؛ ولما حضرته الوفاة بكى ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أبكى على بعد سفرى ، وقلة زادى ، وأنى أصبحت على مهبط جنة أو نار ، لاأدرى أيهما يأخذ بى .

توفى بالمدينة فى خلافة معاوية سنة سبع وخمسين ، وقيل سنة ثمان وخمسين ، وقيل سنة تسع وخمسين ؛ وكان له من العمر ثمان وسبعون سنة .

(٢) ورد الحديث فى الجامع الصغير ، ولفظه : « إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » . رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، =

وخرَّجه الإمام أحمد(١) ،

= والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبرانى فى الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس ، وأشار السيوطى إليه بعلامة الصحيح .

(١) هو الإمام الثقة الحافظ الفقيه الحجة البارع المجمع على جلالته وإمامته وورعه وزهده وعلمه ، شيخ الأمة ، وعلم أعلام بغداد ، وعالم أهل العصر ، ورأس الطبقة العاشرة ، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ابن إدريس بن عبد الله بن حيان الشيبانى الذهلى المروزى ، ثم البغدادى ، صاحب المسند المشهور ؛ خرج من مرو وهو حمل فى بطن أمه ، وولد ببغداد فى ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، ونشأ بها وتوفى فيها ، ورحل إلى مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ، وسمع من الكثيرين ، وسمع منه الكثيرون .

قال إبراهيم الحربى : « رأيت ثلاثة لم نر مثلهم أبدا ، أبا عبيد القاسم ، مامثلته إلا بجبل نفخ فيه الروح ؛ وبشر بن الحارث ، ما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلا ؛ وأحمد بن حنبل ، كأن الله عز وجل جمع له علم الأولين من كل صنف » . وقال أبو مسهر : « ما أعلم أحدا يحفظ على هذه الأمة أمر دينها إلا شابا بالمشرق — يعنى أحمد بن حنبل — » . وقال إبراهيم بن خالد : « كنا نجالس أحمد ، فيذكر الحديث ونحفظه ونتقنه ، فإذا أردنا أن نكتبه قال : الكتاب أحفظ شىء ؛ فيثب ويجىء بالكتاب » . وهذه دقة بالغة فى نقل العلم .

وقد اجتمع لابن حنبل العلم والفقه والزهد والثبات على الحق ، وحسبه موقفه الرائع فى فتنة خلق القرآن ، حتى قال بشر الحافى عنها : « إن أحمد قام مقام الأنبياء » . ومناقبه كثيرة ، وقد صُنفت فيها الكتب قديماً وحديثا . =

وابن ماجه[١] ، من حديث ابن مسعود[٢] ، بزيادةٍ فى آخره ،

= وتوفى ضحوة يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودفن ببغداد .

(١) هو أحد الأئمة ، الحافظ المصنف أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله الرَّبعى القزوينى ، ابن ماجه ، صاحب السنن والتفسير والتاريخ ، ولد سنة تسع ومائتين ، وكان إماما فى الحديث ، عارفا بعلومه وجميع ما يتعلق به ، وهو ثقة كبير الشأن محتج به ، وقد رحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والرى لكتابة الحديث ، وينسب إلى قزوين من أشهر المدن فى عراق العجم .

وسمع من جماعة ، وسمع منه جماعة منهم أصحاب مالك والليث ، وألف سننه المشهورة ، وهى إحدى السنن الأربع ، وإحدى الأمهات الست ، قال عنها ابن كثير : « إنها كتاب مفيد قوى التبويب فى الفقه » .

ومات ابن ماجه يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من رمضان سنة ثلاث — أو خمس — وسبعين ومائتين . وينطق اسمه بالهاء (ابن ماجه) وينطق بالتاء المربوطة (ابن ماجة) . وقد رثاه محمد بن الأسود بأبيات منها :

لقد أوهى دعائم عرش علم   وضعضع ركنه فقدُ ابن ماجه

(٢) هو أحد السابقين الأولين ، وأحد كبار العلماء من الصحابة فى القرآن والفقه والفتوى ، أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلى الكوفى ، وأمه أم عبد بنت عبد ود ، أسلمت وهاجرت ، فهو صحابى ابن صحابية ، قال : « لقد رأيتنى سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا » . وهاجر إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وشهد المشاهد والغزوات . وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر ، وشهد له النبى صلوات الله عليه بالجنة ، وكان كثير الولوج على الرسول والخدمة له ، وكان يعرف بصاحب السواك والنعل والسواد ، وروى =

وهى : «قيل : يارسول الله ، ومَن الغرباء ؟ قال : النُّزَّاع (١) من القبائل» .
وخرَّجه أبو بكر الآجرى (٢) ، وعنده : « قيل : ومن هم

=الأحاديث الكثيرة ، وكانوا يعدونه من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم من كثرة دخوله ودخول أمه على الرسول ولزومه له . وعن عبد الرحمن بن زيد قال : « قلنا لحذيفة : أخبرنا برجل قريب السمت والدل والهدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نأخذ عنه . فقال : ما نعلم أحداً أقرب سمتا ودلا وهديا برسول الله من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة » .

وهو القائل : « والذى لا إله غيره مامن كتاب الله سورةٌ إلا أنا أعلم حيث نزلت ، ومامن آية إلا أنا أعلم فيم نزلت ، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه » . وبعثه عمر إلى الكوفة معلما ووزيرا ، وقال لأهل الكوفة : « آثرتكم بعبد الله على نفسى » . وكان يحيى الليل ، ونزل الكوفة آخر أمره ، وتوفى بها سنة ثنتين وثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين ، وقيل توفى بالمدينة ودفن بالبقيع .

(١) فى أساس البلاغة : « ونزع من الأمر نزوعا : كف عنه ؛ ورأيته مكبا على الشر فاستنزعته : سألته أن ينزع عنه » . وفى القاموس : وصار الأمر إلى النزَّعة أى قام بإصلاحه أهل الأناة ، والنازع الغريب وجمعه النُّزَّاع .

(٢) أبو بكر الآجرى : فى تاريخ بغداد أن اسمه أحمد بن خالد بن يزيد ، سمع من جماعة ، وروى عنه جماعة ، وأنه توفى فى ربيع الأول سنة ثنتين وثمانين ومائتين وله ست وتسعون سنة ؛ ثم ذكر البغدادى أن الشافعى وغيره ربما سموه محمد بن خالد ، ولذلك ذكره فى جملة المحمدين ؛ فقال إنه محمد بن الحسين بن عبد الله أبو بكر الآجرى ، وإنه كان ثقة صدوقا ديِّنا ، وله تصانيف كثيرة ، وحدَّث ببغداد قبل سنة ثلاثين وثلاثمائة ، ثم انتقل إلى مكة فسكنها حتى توفى بها ، وإنه مات سنة ستين وثلاثمائة . انظر ج ١ ص ١٢٧ و ج ٢ ص ٢٤٣ من تاريخ بغداد للبغدادى .

يا رسول الله ؟. قال : الذين يَصلحون إذا فسد الناس » .

وخرّجه غيره ؛ وعنده : « قال : الذين يفرُّون بدينهم من الفتن » .

وخرّجه الترمذى (١) ، من حديث كثير بن عبد الله المزنى (٢) ، عن أبيه عن جده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الدين بدأ

---

(١) هو الإمام الثقة الحافظ المبرز أبو عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمى الترمذى الضرير ، صاحب الجامع والتفسير ، ولد بترمذ فى ذى الحجة سنة مائتين — وترمذ مدينة بينها وبين بلخ بخراسان اثنا عشر فرسخا — والترمذى مثلثة التاء والميم ، والمشهور فيهما الكسر ، قيل إنه ولد أكمه ، وهو تلميذ البخارى ، وشاركه فى الرواية ، وسمع منه البخارى ، وكان سباقا آية فى الحفظ والإتقان ، وتوفى بترمذ سنة تسع وسبعين ومائتين ، ليلة الإثنين الثالث عشر من رجب . وله تصانيف فى علم الحديث ، وكتابه الجامع فيه ما ليس فى غيره من ذكر المذاهب ، ووجوه الاستدلال ، والإشارة إلى ما فى الباب من الأحاديث ، وتبيين أنواع الحديث من الصحة والحسن والغرابة والضعف ، وما فيه من جرح وتعديل ، وفى آخره كتاب العلل قد جمع فيه فوائد حسنة ؛ وقد عرض كتابه هذا على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به ، ولذا قال فيه : « من كان فى بيته هذا الكتاب فكأنما فى بيته نبى يتكلم » .

(٢) هو كثير بن عبد الله بن عمر — وقيل عمرو — ابن عوف بن زيد بن مُلْحة — ويقال مليحة بالتصغير — روى عنه طائفة ، وهو ضعيف ، بل قيل : اتفقوا على ضعفه ، ومنهم من نسبه إلى الكذب كالشافعى ، وقال ابن حنبل عنه : منكر الحديث ليس بشىء ، وقال النسائى : هو متروك الحديث . وقال ابن عدى : ما يرويه لا يتابع عليه .

غريبا ، وسيرجع غريبا ، فطوبى للغرباء ، الذين يُصلحون ما أفسد الناس من سنتى » .

وخرَّجه الطبرانى[١] ، من حديث جابر[٢] ، عن النبى صلى الله

---

(١) هو الإمام الحافظ مسند الدنيا أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب ابن مطير الطبرانى ، أحد الأئمة الثقات الأثبات . صنف المعجم الكبير فى أسماء الصحابة الكرام ، والأوسط فى غرائب شيوخه ، والصغير فى أسماء شيوخه ، وغير ذلك من الكتب ؛ وقد كان ابن العميد يعد مذاكرة الطبرانى أحلى وأشهى من الرياسة والوزارة . وولد الطبرانى بطبرية من بلاد العجم ، وتوفى بأصبهان سنة ستين وثلاثمائة .

(٢) هو الصحابى ابن الصحابى أبو عبد الله — وقيل أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو محمد — جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن عمرو بن سواد الخزرجى الأنصارى السَّلمى المدنى ، وهو أحد المكثرين الرواية عن النبى صلوات الله عليه ، روى ما يزيد عن ألف وخمسمائة حديث ، استشهد أبوه يوم أحد ، وأحياه الله وكلمه ، وقال : يا عبد الله ، ما تريد ؟ . فقال : أن أرجع إلى الدنيا فاستشهد مرة أخرى ! ؛ وشهد الغزوات إلا بدرا وأحدا ، وعن جابر قال : دفنت أبى يوم أحد مع رجل ، ثم استخرجته بعد ستة ، أشهر فإذا هو كيوم وضعته غير أُذنه . وعنه قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة ، ولم أشهد بدرا ولا أحدا ، منعنى أبى ، فلما قُتل أبى يوم أحد لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة قط .. وهو من أصحاب العقبة ، وهو من الجمع الذى قال له الرسول يوم الحديبية : « أنتم اليوم خير أهل الأرض » وذهب بصر جابر فى آخر عمره ، وتوفى بالمدينة سنة ثلاث وسبعين ، وقيل ثمان وسبعين ، وقيل ثمان وستين ، وكان يوم وفاته فى الرابعة والتسعين من عمره .

عليه وسلم ، وفى حديثه : « قيل : ومن هم يارسول الله ؟ . قال : الذين يصلحون حين فساد الناس » .

وخرَّجه أيضاً من حديث شريك بن سعد بنحوه .

وخرَّجه الإمام أحمد ، من حديث سعد بن أبى وقاص [(١)] ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى حديثه : « فطوبى يومئذ للغرباء إذا فسد الناسُ » .

---

(١) هو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة ، الذين توفى النبى صلوات الله عليه وهو عنهم راض ، أبو إسحق سعد بن مالك بن وهب — ويقال أهيب — ابن عبد مناف القرشى الزهرى المكى المدنى ، أسلم قديما بعد أربعة — وقيل بعد ستة — وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وأول من أراق دما فى سبيل الله ، وهو من المهاجرين الأولين ، شهد سائر الغزوات ، وكان يقال له : (فارس الإسلام) ، وأبلى يوم أحد بلاءً شديداً ، وكان مجاب الدعوة ، وأخبار ذلك فى الصحيحين ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى عنه جماعة .

واستعمله عمر على الجيوش التى بعثها إلى الفرس ، وهو الذى فتح مدائن كسرى وبنى الكوفة ، وولّاه عمر العراق . وجمع له الرسول بين أبويه ، فقال له يوم أحد : « ارم فداك أبى وأمى » . وقد اعتزل الفتن بعد مقتل عثمان ، ولما حضرته الوفاة دعا بجبة قديمة له من صوف ، وقال : « كفِّنونى فيها ، فإنى كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهى علىَّ ، وإنما كنت أخبؤها لهذا » وتوفى سنة خمس وخمسين — وقيل غير ذلك — وكان موته بالعقيق على عشرة أميال من المدينة ، وحُمل على الأعناق إلى المدينة ، وصُلى عليه فيها ، ودفن بالبقيع .

وخرّج الإمام أحمد ، والطبرانى ، من حديث عبد الله ابن عمر[١] ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « طوبى للغرباء . قلنا : ومن الغرباء ؟ . قال : قوم قليلٌ فى ناسِ سوء كثير ، من يعصيهم أكثرُ ممن يطيعهم » .

---

(١) هو الصحابى الزاهد عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى المدنى ، أسلم مع أبيه قبل بلوغه ، وهاجر قبل أبيه ، وقال : عُرضت على النبى صلى الله عليه وسلم عام أحد ، وأنا ابن أربع عشرة سنة ، فلم يجزنى ، وعُرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى . وشهد المشاهد بعد ذلك مع الرسول وبعد الرسول .

وكان شديد الاتباع لرسول الله وسنته وآثاره ، حتى إنه ينزل منازله ، ويصلى فى كل مكان صلى فيه ؛ ويبرك ناقته فى مبرك ناقته ، وروى أن النبى صلوات الله عليه نزل تحت شجرة ، فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس . روى الكثير عن الرسول ، وقل نظيره فى المتابعة للرسول فى كل الأقوال والأعمال ، وكان رجلا صالحاً زاهداً متصدقاً جوادا ، وكان إذا قرأ قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » يبكى حتى يغلبه البكاء ، ولم يقاتل فى الحروب التى جرت بين المسلمين ، وفى الصحيحين أن النبى صلوات الله عليه قال : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل » فكان لاينام بعد ذلك من الليل إلا قليلا .

توفى بمكة — وقيل بفخ وهو موضع قرب مكة — سنة ثلاث وسبعين بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر ، وقيل بستة أشهر .

وروى عن عبدالله بن عمر مرفوعا وموقوفا[1] فى هذا الحديث :

« قيل : ومن الغرباء ؟ . قال : الفرّارون بدينهم ، يبعثهم الله تعالى مع عيسى بن مريم[2] عليه السلام » .

* * *

قوله : « بدأ الإسلام غريبا » :

يريد به أن الناس كانوا قبل مبعثه على ضلالةٍ عامة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى حديث عياض بن حمار[3] الذى خرّجه

---

(١) المرفوع : هو ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، تصريحاً أو حكما ، سواء اتصل سنده أم لا ، أضافه صحابى أم غيره . والموقوف : هو ماأضيف إلى الصحابى من قوله أو فعله أو تقريره ، متصلا أو منقطعاً ، وكان للرأى فيه مجال ، أما ماليس للرأى فيه مجال فهو فى حكم المرفوع (عن المنهل المورود) .

(٢) هو عبد الله ورسوله ، وكلمته وروح منه ، المسيح عيسى بن مريم ، الذى جعله الله وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وجعله يكلم الناس فى المهد ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى بإذن الله ، وكان زاهداً لم يتخذ بيتاً ولامتاعا ، وكان كثير السياحة ، وقد تجلت فيه آية الله الكبرى بميلاده من أمه مريم دون أن يكون له أب .

(٣) هو الصحابى عياض بن حمار — على لفظ الدابة المعروفة — ابن أبى حمار بن ناجية بن عقال التميمى المجاشعى ، وفى نسبه اختلاف ، نزل البصرة ، وهو معدود من أهلها ، وروى له عن النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثون حديثا ، وعاش إلى حدود الخمسين .

مسلم : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم[١] عربَهم وعجمَهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » .

فلما بُعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الإسلام ، لم يستجب له فى أول الأمر إلا الواحدُ بعدَ الواحد من كل قبيلة . وكان المستجيبُ له خائفاً من عشيرته وقبيلته ، يُؤْذَى غاية الأذى ، ويُنال منه ، وهو صابر على ذلك فى الله عز وجل .

وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين[٢] ، يُشَرَّدُون كل مشرَّد[٣] ويهربون بدينهم إلى البلاد النائية ، كما هاجروا إلى الحبشة مرتين[٤] ، ثم هاجروا إلى المدينة .

---

(١) المقت : هو البغض الشديد لمن تراه يفعل الشيء القبيح ، قال تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » سورة النساء — آية ٢٢ .

(٢) يقول الله تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » سورة الأنفال — ٢٦ .

(٣) فى مفردات القرآن للراغب : « وشردّت فلانا فى البلاد ، وشردت به ، أى فعلت به فعلةً تشرد غيره أن يفعل فعله ، كقولك : نكلت به ، أى جعلت مافعلت به نكالا لغيره ، قال تعالى : (فشرِّد بهم من خلفهم) أى اجعلهم نكالاً لمن يعرِض لك بعدهم ، وقيل فلان طريد شريد » .

(٤) كانت الهجرة إلى أرض الحبشة مرتين ، فكان عدد المهاجرين فى المرة الأولى اثنى عشر رجلا وأربع نسوة ، ثم رجعوا ظنا منهم أن حدة قريش على المسلمين قد خفت أو زالت ، فلقوا من المشركين أشد مما عهدوا =

وكان منهم من يعذَّب فى الله(١) ، ومنهم من يُقتَل ؟ . .

فكان الداخلون فى الإسلام حينئذ غرباء ! .

ثم ظهر الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة وعزَّ ، وصار أهله ظاهرين كل الظهور ، ودخل الناس بعد ذلك فى دين الله أفواجا(٢) وأكمل الله لهم الدين ، وأتم عليهم النعمة ، وتُوُفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر على ذلك ، وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة فى دينهم ، وهم متعاضدون متناصرون .

وكانوا على ذلك فى زمن أبى بكر(٣) ،

= فهاجروا ثانية ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا ، وثمانى عشرة امرأة ، وبعثت قريش فى شأنهم إلى النجاشى مرتين ، الأولى عند هجرتهم ، والثانية عقيب غزوة بدر ، وكان عمرو بن العاص رسول قريش فى المرتين .

(١) ومن هؤلاء بلال ، وعمار ، والمقداد ، وخباب ، وسعد بن أبى وقاص؛ والسيرة تفيض بقصص تعذيب المشركين لهم ولغيرهم ؛ وممن قُتل سمية .

(٢) الفوج الجماعة المارة المسرعة ، وجمعه أفواج ، قال تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا » . وفى الجامع الصغير حديث لفظه : « إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا » . رواه أحمد فى مسنده عن جابر ، وهو حسن .

(٣) هو خليفة رسول الله أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر ابن عمير بن كعب بن سعد ، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة ابن كعب ، وأمه هى أم الخير بنت صخر بن عامر بن كعب ؛ وقيل إن اسمه =

وعمر [١] ، رضى الله عنهما ؛ ثم عمل الشيطان مكائده على المسلمين ،

═عتيق ، إما لعتقه من النار ، وإما لحسن وجهه وجماله ، وإما لأنه لم يكن فى نسبه شىء يعاب به ، وقد سماه الرسول الصِّديق لكثرة تصديقه له ، وكان أسبق الناس إلى الإسلام ، ولم تقع منه هناة ولا وقفة فى حال من الأحوال . وكانت له فى الإسلام مواقف رفيعة ، واسى النبى صلى الله عليه وسلم بماله ونفسه . وتولى الخلافة بعد رسول الله صلوات الله عليه ، فكانت خلافته خيراً وبركة على المسلمين ، وظهر ثباته ويقينه فى محاربة المرتدين ؛ وهو أول من آمن فى أحد الأقوال ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وصاحب الفضائل والمناقب الجمة الكثيرة .

وكان من رؤساء قريش فى الجاهلية ، وأهل مشاوراتهم ، ومحبباً فيهم ، وصحبته للرسول فى الهجرة مشهورة ، وشهد مع الرسول سائر المشاهد ، وكان فيمن ثبت معه يوم أحد ويوم حنين ، وهناك كثير من الأحاديث المصرحة بفضله وتقديمه ، وكان عالماً زاهداً متواضعاً ، ولد بعد عام الفيل بثلاث سنوات تقريبا ، وتوفى وله ثلاث وستون سنة ، كرسول الله عليه الصلاة والسلام .

(١) هو أمير المؤمنين الخليفة الثانى أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل ابن عبد العزى بن رباح القرشى العدوى المدنى ، وأمه حنتمة بنت هاشم . ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، وكان من أشراف قريش ، وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، ولما ظهر الإسلام كان عمر شديد البطش بالمسلمين ؛ ثم هداه الله فأسلم بعد أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة ، وقيل غير ذلك ، فلما أسلم ظهر الإسلام بمكة ، ولذلك سماه النبى الفاروق ، قال ابن مسعود : « كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمامته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا » . وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان عالماً زاهداً متواضعاً ،═

وألقى بأسهم بينهم[١]، وأفشى فيهم فتنة الشبهات والشهوات ؛ ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئاً فشيئا ، حتى استحكمت مكيدة الشيطان ، وأطاعه أكثر الخلْق ، فمنهم من دخل فى طاعته فى فتنة الشبهات ، ومنهم من دخل فى فتنة الشهوات ، ومنهم من جمع بينهما .

وكلٌّ ذلك مما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بوقوعه . فأما فتنة الشبهات فقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه أن أمته ستفترق على أزيد من سبعين فرقة ؛ على اختلاف الروايات فى عدد الزيادات على السبعين ؛ وأن جميع تلك الفرق فى النار إلا فرقة واحدة ، وهى ما كانت عَلَى ما هو عليه وأصحابه صلى الله عليه وسلم[٢] .

= شديداً فى الحق ، رءوفا بالمسلمين ، وقد ورد فى فضله وقدره الكثير من الأحاديث ، كما نزل القرآن موافقاً لرأيه فى كثير من المواقف ، وتولى الخلافة فكان رحيما عادلا ، وطعنه اللعين المجوسى أبو لؤلؤة ، بعد أن أحرم بصلاة الصبح يوم الأربعاء ، لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت خلافته عشر سنين وبضعة أشهر .

(١) البأس والبأساء الشدة والمكروه ، قال تعالى : « بأسهم بينهم شديد » . . وقال : « والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .

(٢) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : افترقت اليهود =

وأما فتنة الشهوات ففى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو[1] ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنتم إذا فُتحت عليكم خزائن فارس والروم ؟ أى قوم أنتم ؟ . قال عبد الرحمن

—

= على إحدى — أو ثنتين — وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى — أو ثنتين — وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى — أى ستفترق — على ثلاث وسبعين فرقة ؛ زاد فى رواية : ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة وهى الجماعة ؛ رواه أبو داود والترمذى بأسانيد صحيحة .

(١) هو العابد الزاهد الصحابى ابن الصحابى أبو محمد — وقيل أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو نُصير — عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم ابن سُعيد ، كان بينه وبين أبيه فى السن اثنتا عشرة سنة ، وأمه ريطة بنت منبه ، أسلمت ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : نعم أهل البيت عبد الله ، وأبو عبد الله ، وأم عبد الله .

أسلم عبد الله قبل أبيه ، وكان كثير العلم ، مجتهدا فى العبادة وتلاوة القرآن ، وكان كثير الأخذ للحديث من الرسول صلى الله عليه وسلم . وشهد مع أبيه فتح الشام ، وكانت معه راية أبيه يوم اليرموك ، ومن قوله : « لخير أعمله اليوم أحب إلىّ من مثليه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وإنا اليوم مالت بنا الدنيا » .

توفى سنة ثلاث — وقيل خمس — وستين بمصر ، وقيل سنة سبع وستين بمكة ، وقيل سنة خمس وخمسين بالطائف ، وقيل سنة خمس وستين بفلسطين ، وقيل غير ذلك ! ! . . . وكان عمره ثنتين وسبعين سنة .

ابن عوف[١] : نقول كما أمرنا الله . قال : أوغير ذلك ؛ تتنافسون ، ثم تتحاسدون ، ثم تتدابرون[٢] » .

وفى صحيح البخارى[٣] ،

---

(١) هو أبو محمد عبد الرحمن بن عوف بن الحارث القرشى الزهرى المدنى الصحابى، وأمه الشفاء بنت عبدعوف ، ولد بعد الفيل بعشر سنوات ، وهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وصلى النبى صلى الله عليه وسلم وراءه فى غزوة تبوك ، حين أدركه وقد صلى بالناس ركعة ؛ وجرح عبد الرحمن يوم أُحد إحدى وعشرين جراحة ، وكان كثير الإنفاق والإحسان ، وروى فى الحديث أن عبد الرحمن بن عوف أمين فى السماء أمين فى الأرض .

وكان كثير المال ، محظوظا فى التجارة ، قيل إنه دخل على أم سلمة فقال : « ياأُمَّه ، خفتُ أن يهلكنى كثرةُ مالى » . قالت : « يابنى ، أنفق » .

وتوفى سنة ثنتين وثلاثين ، وقيل غير ذلك ؛ ودفن بالبقيع ، ولما توفى قال فيه الإمام على : « اذهب يا ابن عوف ، أدركت صفوها ، وسبقت كدرها » ! .

(٢) رواه مسلم بحذف قوله : كيف أنتم . وزاد فى آخره : ثم تتباغضون — أو نحو ذلك — ثم تنطلقون فى مساكين المهاجرين ، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض .

(٣) هو الإمام العظيم والحافظ العلم صاحب الصحيح أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخارى الجعفى ، ولد بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ، وهو أحد حفاظ الدنيا الأربعة ، وكان عالماً فقيها ، مؤرخا جامعا ، مفضَّلا تقيا . روى أن الإمام مسلما جاءه وقبَّل بين عينيه ، وقال : « دعنى أقبل رجليك ، ياأستاذ =

عن عمرو بن عوف[١] ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله ، ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » .

وفى الصحيحين من حديث عقبة بن عامر[٢] ، عن النبي صلى الله عليه وسلم معناه أيضا .

=الأستاذين ، وسيد المحدثين ، وياطبيب الحديث فى علله » . وقد رحل البخارى فى طلب العلم إلى جميع محدثى الأمصار ، وكتب بخراسان والجبال والعراق والحجاز ومصر والشام .

ومن كلامه : « المادح والذامُّ عندى سواء » ، « أرجو أن ألقى الله عز وجل ولا يطالبنى أنى اغتبت أحداً » . وكتابه الصحيح فى الحديث يعد أصح كتاب بعد القرآن ، وقد أجمعت الأمة على صحته وصحة كتاب الإمام مسلم .

وتوفى البخارى ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة عيد الفطر ، ودفن يوم الفطر بعد الظهر ، سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن بقرية (خرتنك) وهى على فرسخين من سمرقند .

(١) هو أبو عبد الله عمرو بن عوف بن زيد بن مُليحة — وقيل مُلحة — المزنى . كان قديم الإسلام ، يقال هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد البكَّائين فى غزوة تبوك الذين نزل فيهم قوله تعالى : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع » . توفى فى آخر خلافة معاوية .

(٢) هو أبو حماد — وقيل أبو سعاد ، أو أبو عامر ، أو أبو لبيد ، أو أبو عمرو ، أو أبو عبس ، أو أبو أسيد ، أو أبو أسد ، أو أبو الأسود — عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهنى ، سكن دمشق ، وكان من أحسن =

ولما فُتحت كنوزُ كسرى[١] على عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكى ، فقال : « إن هذا لم يُفتح على قوم قط إلا جعل الله بأسهم بينهم » . أو كما قال .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخشى على أمته هاتين الفتنتين ، كما فى مسند الإمام أحمد ، عن أبى برزة[٢] ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« إنما أخشى عليكم الشهوات[٣] التى فى بطونكم وفروجكم

= الناس صوتاً بالقرآن ، وشهد فتوح الشام ، وكان هو البريد إلى عمر بفتح دمشق . وسكن مصر ، ووليها لمعاوية ثلاث سنين ، وكان فقيها فاضلا ، وتوفى بمصر سنة ثمان وخمسين ، أو قرب الستين .

(١) هو كسرى عظيم الفرس فى القديم ، وكان كل من ملك الفرس يقال له كسرى ، كما أن كل من ملك الروم يسمى قيصر . وفى كسرى أنوشروان ورد الحديث : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

(٢) هو أبو برزة نضلة بن عبيد ، وقيل نضلة بن عمرو ، وقيل غير ذلك ، وليس هناك من يكنى بأبى برزة من الصحابة غيره ، وقد أسلم قديما ، وشهد مع الرسول فتح مكة . نزل البصرة وولد بها ، ثم غزا خراسان ، وقيل إنه رجع إلى البصرة فتوفى بها ، وقيل بخراسان أو نيسابور أو بمفازة بين سجستان وهراة ، وكانت وفاته فى خلافة معاوية أو يزيد ، سنة ثنتين — وقيل أربع — وستين .

(٣) من كلام الصوفية فى الشهوات يقول حاتم الأصم : « الشهوة ثلاثة : شهوة فى الأكل ، وشهوة فى الكلام ، وشهوة فى النظر ، فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة » . ويقول أبو يزيد البسطامى : =

ومضلات الفتن » وفى رواية : « ومضلات الهوى[1] » .

فلما دخل أكثر الناس فى هاتين الفتنتين ، أو إحداهما ، أصبحوا متقاطعين متباغضين ، بعد أن كانوا إخوانا متحابين متواصلين ؛ فإن فتنة الشهوات عمت غالب الخلق ، ففتنوا بالدنيا وزهرتها ، وصارت غاية قصدهم : لها يطلبون ، وبها يرضون ، ولها يغضبون ، ولها يوالون[2] ، وعليها يعادون .

= « لا يعرف نفسه من صَحِبَتْهُ شهوته » . ويقول أحمد بن خضرويه : « لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رقّ أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة لما ظفرت بك الشهوة » . وسئل أبو سليمان الدارانى : إذا خرجت الشهوات من القلب ، أى اسم يقع عليه ؟ زاهد ؟ ورع ؟ ماذا ؟. قال : إذا سلا القلب عن الشهوات فهو راض . وقال ابن خبيق الأنطاكى : « خلق الله القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق » . وقال أبو بكر الكتانى : « الشهوات زمام الشيطان ، فمن أخذ بزمامه كان عبده » .

(١) يقول أبو بكر الوراق : « أصل غلبة الهوى مقارفة الشهوات ، فإذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلْق ، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم ، وإذا أبغضهم جفاهم ، وإذا جفاهم صار شيطانا » .

(٢) يوالون : أى يصادقون ويحبون ؛ فإذا أعطاهم أحد من هذه الدنيا أقبلوا عليه وأحبوه ، وإذا منعهم كرهوه وصاروا له أعداء .

فقطعوا لذلك أرحامهم ، وسفكوا دماءهم ، وارتكبوا معاصى الله بسبب ذلك .

وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة فبسببها تفرق أهل القبلة وصاروا شيعا[1] ، وكفَّر بعضهم بعضا ، وأصبحوا أعداء وفرقا وأحزابا ، بعد أن كانوا إخوانا ، قلوبهم على قلب رجل واحد ؛ فلم ينجُ من هذه الفرق كلها إلا الفرقة الواحدة الناجية ، وهم المذكورون فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك[2] » .

وهم فى آخر الزمان الغرباء المذكورون فى هذه الأحاديث[3] ،

---

(١) قال تعالى : « إن الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لستَ منهم فى شىء ، إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » . سورة الأنعام — ١٥٩ .

(٢) رواه الترمذى ، وأبو داود ، ومسلم .

قال أحمد بن خضرويه : « الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعى قد أسمع ، فما التحير بعد هذا إلا من العمى » . وقال أبو العباس الطوسى : « كثرة النظر فى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب » .

(٣) جاء فى لسان العرب : « وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الغرباء ، فقال : (الذين يُحيون ما أمات الناسُ من سنتى) . وفى حديث آخر : (إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء) . أى إنه كان فى أول أمره كالغريب الوحيد ، الذى لا أهل له عنده ، لقلة المسلمين =

الذين يَصلحون إذا فسد الناس ، وهم الذين يُصلحون ما أفسد الناسُ من السُّنَّة ، وهم الذين يفرون بدينهم من الفتن[1] ، وهم النزّاع من القبائل ، لأنهم قلُّوا ، فلا يوجد فى كل قبيلة منهم إلا الواحد والاثنان ، وقد لا يوجد فى بعض القبائل منهم أحد ، كما كان الداخلون فى الإسلام فى أول الأمر كذلك .

= يومئذ ؛ وسيعود غريباً كما كان ، أى يقل المسلمون فى آخر الزمان ، فيصيرون كالغرباء ، فطوبى للغرباء ؛ أى الجنة لأولئك المسلمين الذين كانوا فى أول الإسلام ، ويكونون فى آخره ؛ وإنما خصهم بها لصبرهم على أذى الكفار أولاً وآخرا ، ولزومهم دين الإسلام . وفى حديث آخر : (أمتى كالمطر لايدرى أولها خير أو آخرها) . قال : وليس شىء من هذه الأحاديث مخالفاً للآخر ، وإنما أراد أن أهل الإسلام حين بدَا كانوا قليلاً ، وهم فى آخر الزمان يقلون ، إلا أنهم أخيار ، ومما يدل على هذا المعنى الحديثُ الآخر : (خيار أمتى أولها وآخرها ، وبين ذلك ثبج أعوج ، ليس منك ولست منه)» ج ٢ ص ١٣١ .

وقد ورد فى الجامع الصغير : « أمتى أمة مباركة ، لايدرى أولها خير أو آخرها » . رواه ابن عساكر عن عمرو بن عثمان مرسلا ، وعليه علامة الحسن ؛ وورد كذلك : « خيار أمتى أولها ، وآخرها نهج أعوج ، ليسوا منى ولست منهم » . رواه الطبرانى فى الكبير عن عبد الله بن السعدى ، وعليه علامة الصحيح .

(١) قال سهل التسترى الصوفى : « الفتن ثلاثة : فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق فى وقت فيؤخروه إلى وقت ثان » .

وبهذا فسر الأئمة هذا الحديث :

قال الأوزاعى[1] فى قوله صلى الله عليه وسلم : (بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريبا كما بدأ) : « أمَا إنه ما يذهب الإسلامُ ، ولكن يذهب أهلُ السنة ، حتى ما يبقى فى البلد منهم إلا رجلٌ واحد » .

---

(١) هو الثقة الجليل المشهور ، إمام أهل الشام فى عصره بلا مدافعة ولا مخالفة ، أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى الشامى الدمشقى ، والأوزاع التى ينسب إليها بطن من قبيلة ، أو قرية عند دمشق ، أو هى أوزاع القبائل ، أى فرقها وبقاياها . ولد ببعلبك سنة ثمان وثمانين ، وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعى وجلالته ، وعلو مرتبته وكمال فضله ، وورعه وقيامه بالحق وتمسكه بالسنة . والأوزاعى من تابعى التابعين .

وعن سفيان الثورى أنه لما بلغه مقدم الأوزاعى خرج حتى لقيه بذات طوى ، فحلَّ سفيان رأس البعير عن قطار الإبل ، ووضع مقوده على رقبته ، وكان إذا مرَّ بجماعة قال : الطريق للشيخ !!..

كان الأوزاعى يسكن دمشق ، ثم تحول إلى بيروت ، فسكنها مرابطا إلى أن مات بها ، وكان موته فى حمام بيروت : دخل الحمام فذهب الحمَّامى فى حاجته ، وأغلق عليه الباب ، ثم جاء وفتح فوجده ميتاً متوسداً يمينه مستقبل القبلة ، وكانت وفاته سنة سبع وخمسين ومائة . وضريحه ومسجده قائمان إلى اليوم على شاطىء البحر فى بيروت ، وقد صليتُ فى ذلك المسجد وخطبت فيه خطبة الجمعة يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٥٢م مع بعثة المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين .

ولهذا المعنى يوجد فى كلام السلف كثيرا مدحُ السنة ، ووصفُها بالغربة ، ووصف أهلها بالقلة ؛ فكان الحسن [١] رحمه الله تعالى يقول لأصحابه : « يا أهل السنة ، ترفقوا رحمكم الله ، فإنكم من أقل الناس » .

وقال يونس بن عبيد [٢] : « ليس شىء أغرب من السنة ، وأغرب منها من يعرفها » .

---

(١) هو الإمام المشهور، المجمَع على جلالته، أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار التابعى البصرى الأنصارى ، وأمه اسمها خيرة ، وهى مولاة لأم سلمة رضى الله عنها ، وقد ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وربما خرجت أمه فيبكى ، فتعطيه أم سلمة ثديها فيدر عليه ، فيرون أن فصاحته وحكمته من ذلك . ونشأ الحسن بوادى القرى ، وأدرك من الصحابة مائة وثلاثين .

قال مطر الوراق : « كان الحسن كأنما كان فى الآخرة ، فهو يخبر عما رأى وعاين » . وقال محمد بن سعد : « كان الحسن جامعاً عالماً ، رفيعاً فقيها ، ثقة مأمونا ، عابداً ناسكا ، كثير العلم فصيحا ، جميلا وسيما » .

وكان يقول : « ذم الرجل نفسه فى العلانية مدح لها » . ويقول : « أكرم إخوانك يدم لك ودهم » . ويقول : « الدنيا مطيتك ، إن ركبتها حملتك ، وإن ركبتك قتلتك » . . . وفى قوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر) يقول الحسن : « كان غنياً عن مشاورتهم ، لكن أراد أن يستن به الحكام بعده » . ومن قوله : « إذا رأيت فى ولدك ماتكره فاعلم أنه شىء تراد به أنت ، فأحسنْ » !. توفى سنة عشر ومائة . .

(٢) هو صاحب الحسن البصرى : أبو عبد الله — وقيل أبو عبيد — يونس بن عبيد بن دينار العبدى البصرى التابعى الجليل ، اتفقوا على توثيقه =

وروى عنه أنه قال : « أصبح من إذا عُرِّفَ بالسنة فعرفها غريباً ، وأُغرب منه من يَعْرِفها » .

وعن سفيان الثورى[1] قال : « استوصوا بأهل السنة خيرا ، فإنهم غرباء » .

=وجلالته ، قال سلمة بن علقمة : جالست يونس بن عبيد فما استطعت أن أجد عليه كلمة . وكان كثير الحديث ثبتا فاضلا .

وكان يقول : « البر كله قد يشوبه شىء ، إلا ما كان من حفظ اللسان ، فإنه من البر ، ولا يشوبه شىء ؛ وذلك لأن الرجل قد يكثر الصلاة والصيام ويفطر على الحرام ، ويقوم الليل ويرائى بذلك ، ويقع فى اللغو وشهادة الزور ، وإذا حفظ لسانه أرجو أن يبر عمله كله » . ومن قوله : « لو أنى وجدتُ درهما من حلال لاشتريتُ به بُرًّا ، ثم جعلته سويقا ، ثم سقيته للمرضى ، فكل مريض شرب شيئا شفاه الله عز وجل » . ومن قوله : « خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما ؛ أمر صلاته ولسانه » .

توفى سنة تسع وثلاثين ومائة .

(١) هو الإمام الجامع لأنواع المحاسن ، أبو عبد الله سفيان بن سعيد ابن مسروق بن حبيب بن رافع الثورى الكوفى ، من تابعى التابعين ، ولد سنة سبع وتسعين ؛ واتفق العلماء على وصفه بالبراعة فى العلم بالحديث والفقه ، والورع والزهد ، وخشونة العيش ، والقول بالحق ، وغير ذلك من المحاسن . ويسمونه (أمير المؤمنين) فى الحديث ، وقال ابن عيينة : « كان ابن عباس فى زمانه ، والشعبى فى زمانه ، والثورى فى زمانه » . وهو أحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة .

وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة . وكان يقول : «لا ينبغى للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل فى الأدب عشرين سنة »=

ومرادُ هؤلاء الأئمة بالسنة طريقةُ النبى صلى الله عليه وسلم التى كان عليها هو وأصحابه ، السالمة من الشبهات والشهوات .

ولهذا كان الفضيل بن عياض[1] يقول : « أهل السنة مَن

=وكان إذا قالوا له : حدثنا ؛ يقول : « ماأراكم أهلا للحديث ، ولاأرى نفسى أهلا لأن أحدِّث ، وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل : (افتضحوا فاصطلحوا) » . وكان يقول : « المال فى زماننا هذا سلاح للمؤمن » . ويقول : « أُحب لطالب العلم أن يكون فى كفاية ، فإن الآفاتِ وألسنَ الناس تسرع إليه إذا احتاج وذلّ » .

وتوفى بالبصرة ، سنة إحدى وستين ومائة .

(١) هو الزاهد المشهور ، أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى اليربوعى الخراسانى ، من ناحية مرو — مدينة بفارس — من قرية يقال لها فُنْدين ، وقيل إنه ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورد ، وأجمعوا على توثيقه والاحتجاج به ، وصلاحه وزهده وورعه ، ونحوها من طرائق الآخرة ، وكان صحيح الحديث ، صدوق اللسان ، شديد الهيبة للحديث .

ومن أقواله : « من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة » ؛ « فى آخر الزمان أقوام ، يكونون إخوان العلانية ، أعداء السريرة » ؛ « لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة ، وإنما أدرك بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدر ، والنصح للأمة » ؛ « إنى لا أعتقد إخاء الرجل فى الرضا ، ولكنى أعتقد إخاءه فى الغضب إذا أغضبته » ؛ « أشتهى مرضا بلا عُوَّاد » ؛ « أبى الله إلا أن يجعل أرزاق المتقين من حيث لا يحتسبون » ، « من أظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه ، واضمر له العداوة والبغضاء ، لعنه الله ، فأصمه وأعمى بصيرة قلبه » .

مات فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة .

عرف ما يدخل فى بطنه من حلال » . وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال السنة التى كان عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضى الله عنهم .

ثم صار فى عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم : السنة عبارة عما سلم من الشبهات فى الاعتقادات خاصة ؛ فى مسائل الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ؛ وكذلك فى مسائل القدر ، وفضائل الصحابة ؛ وصنفوا فى هذا العلم تصانيف ، وسمَّوها « كتب السنة » .

وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة ، لأن خطره عظيم ، والمخالف فيه على شفا هلكة[1] .

وأما السنة الكاملة فهى الطريقة السالمة من الشبهات والشهوات ، كما قال الحسن[2] ، ويونس بن عبيد ، وسفيان ، والفضيل ، وغيرهم .

---

(١) شفا البئر وغيرها : الحافة والحرف ، ويضرب به المثل فى القرب من الهلاك ، قال تعالى : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » . وأشفى فلان على الهلاك ، أى حصل على شفا الهلاك وقاربه .

(٢) من كلمات الحسن البصرى : « من كانت له أربع خلال حرّمه الله على النار ، وأعاذه من الشيطان : من يملك نفسه عند الرغبة ، وعند الرهبة ، وعند الشهوة ، وعند الغضب » . ويقول السرى السقطى : « الأمور ثلاثة : =

ولهذا وُصف أهلها بالغربة فى آخر الزمان لقلتهم وغربتهم فيه ؛ ولهذا ورد فى بعض الروايات كما سبق فى تفسير الغرباء : « قوم صالحون قليل ، فى قوم سوء كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » .

وفى هذا إشارة إلى قلة عددهم ، وقلة المستجيبين لهم ، والقابلين منهم ، وكثرة المخالفين لهم ، والعاصين لهم .

ولهذا جاء فى أحاديث متعددة مدحُ المتمسك بدينه فى آخر الزمان ، وأنه كالقابض على الجمر[1] ؛ وأن للعامل منهم أجر خمسين ممن قبلهم[2] ، لأنهم لا يجدون أعوانا فى الخير .

= أمر بان لك رشده فاتبعه ، وأمر بان لك غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فقف عنده ، وكله إلى الله عز وجل ، وليكن الله دليلك ، واجعل فقرك إليه ، تستغن به عمن سواه » .

(١) روى الترمذى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى على الناس زمانٌ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر » . وروى مسلم ، والترمذى ، عن معقل بن يسار رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « العبادة فى الهرج — أى كثرة الفتن — كهجرة إلىَّ » .

(٢) روى أبو داود ، والترمذى ، بسند حسن : « قال أبو أمية الشعبانى : سألت أبا ثعلبة عن : (يا أيها الذين آمنو عليكم أنفسكم) الآية ، فقال : أما والله لقد سألتَ عنها خبيرا ، سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : (بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مُؤْثَرَة ، وإعجابَ كلِّ ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة =

وهؤلاء الغرباء قسمان :

أحدهما من يُصلح نفسه عند فساد الناس ، والثانى من يُصلح ما أفسد الناسُ من السنة ، وهو أعلى القسمين ، وهو أفضلهما .

وقد خرَّج الطبرانى ، وغيره — بإسناد فيه نظر — من حديث أبى أمامة[1] ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شىء إقبالا وإدبارا ، وإن من إقبال هذا الدين ما كنتم عليه من العمى والجهالة ، وما بعثنى الله به ، وإن من إقبال هذا الدين أن تفقه القبيلة بأسرها ، حتى لا يوجد فيها إلا الفاسق والفاسقان ، فهما مقهوران

= نفسك ، ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم . قيل : يا رسول الله ، أجر خمسين منا أو منهم ؟ . قال : بل أجر خمسين منكم » .

وروى الترمذى ، بسند غريب ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنكم فى زمان من ترك منكم عُشر ما أُمر به هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منكم بعشر ما أمر به نجا » .

(١) هو الصحابى المشهور أبو أمامة صُدَىُّ بن عجلان بن والبة بن رياح الباهلى ، وفى إملاء نسبه خلاف ؛ روى عن النبى صلى الله عليه وسلم مائتى حديث وخمسين حديثا . سكن مصر ، ثم حمص ، وبها توفى سنة إحدى وثمانين ، وقيل ست وثمانين ، قيل : هو آخر من توفى من الصحابة بالشام .

ذليلان ، إن تكلما قُمِعا[1] وقهرا واضطُهدا ؛ وإن من إدبار هذا الدين أن تجفو القبيلة بأسرها ، حتى لا يرى فيها إلا الفقيه والفقيهان ، فهما مقهوران ذليلان ، إن تكلما فأمرا بالمعروف ، ونهيا عن المنكر ، قُمعا وقهرا واضطهدا ؛ فهما مقهوران ذليلان ، لا يجدان على ذلك أعوانا ولا أنصارا » .

فوصف فى هذا الحديث المؤمن ، العالم بالسنة[3] ، الفقيه فى الدين ، بأنه يكون فى آخر الزمان عند فساده مقهوراً ذليلا ، لا يجد أعواناً ولا أنصاراً . . .

---

(١) يقال : قمعته فانقمع أى كففته فكف . وقمع خصمه : قهره وأذله فانقمع . وقمعته بالمقمع والمقمعة ، وهى أداة يضرب بها ويذلل ؛ قال تعالى : « ولهم مقامع من حديد » . سورة الحج — آية ٢١ .

(٢) قال على بن سهل : « الفقيه من لا يدخل تحت المنسوبات إليه » . وقال : «من فقه قلبه أورثه ذلك الإعراضَ عن الدنيا وأبنائها ، فإن من جهْل القلب متابعة سرور لا يدوم » .

(٣) من أقوال الصوفية فى السنة قول السرى السقطى : « قليل فى سنة خير من كثير مع بدعة ، كيف يقل عمل مع التقوى » ؟ وقول أبى يزيد البسطامى : « السنة ترك الدنيا ، والفريضة الصحبة مع المولى ، لأن السنة كلها تدل على ترك الدنيا ، والكتاب كله يدل على صحبة المولى ، فمن تعلم السنة والفريضة فقد كمل » . وقال يحيى بن معاذ : « العبادة حرفة ، حوانيتها الخلوة ، ورأس مالها الاجتهاد بالسنة ، وربحها الجنة » .

وخرَّج الطبرانى أيضا — بإسناد فيه ضعف — عن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فى حديث طويل ، فى ذكر أشراط الساعة ، قال :

« وإن من أشراطها أن يكون المؤمن فى القبيلة أذلَّ من النَّقَد[1] »

والنقد : هم الغنم الصغار .

وفى مسند الإمام أحمد ، عن عُبادة بن الصامت[2] ، أنه قال لرجل من أصحابه : « يوشك إن طالت بك الحياة أن ترى الرجلَ

---

(١) النَّقَد والنِّقاد : صغار الغنم . وصاحبها النقَّاد (الأساس) . وفى القاموس : جنس من الغنم قبيح الشكل . وقيل جنس من الغنم قصار الأرجل ، قباح الوجوه ، تكون بالبحرين ، الواحدة نقدة .

(٢) هو الصحابى ، البدرى ، أحد النقباء ، أبو الوليد عبادة بن الصامت ابن قيس بن أصرم الأنصارى الخزرجى المدنى ، شهد العقبة الأولى والثانية مع النبى صلوات الله عليه ، وكان أحد النقباء ليلة العقبة ، كان نقيبا على جماعة القوافل ، وشهد المشاهد مع الرسول ، واستعمله النبى صلى الله عليه وسلم على الصدقات ، وكان يعلِّم أهل الصُّفَّة القرآن ، ولما فُتح الشام أرسله عمر مع معاذ وأبى الدرداء ليعلِّموا الناس بالشام ويفقهوهم ، ثم صار عبادة إلى فلسطين .

قال الأوزاعى : أول من ولى قضاء فلسطين عبادة . كان فاضلا خيرا ، جميلا طويلا جسيما . وقال سعيد بن عفير : كان طوله عشرة أشبار .

توفى ببيت المقدس — وقيل بالرملة — سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن ثنتين وسبعين سنة ، وقيل توفى سنة خمس وأربعين ، والأول أصح وأشهر ، وقيل عاش إلى خلافة معاوية .

قد قرأ القرآن عَلَى لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فأعاده وأبداه ، وأحلَّ حلالَه ، وحرَّم حرامه ، ونزل عند منازله ، لا يجوز فيكم إلا كما يجوز الحمار الميت[١] » .

ومثله قول ابن مسعود : « يأتى عَلَى الناس زمان يكون المؤمن فيه أذلَّ من الأَمَة » .

وإنما ذل المؤمن آخر الزمان لغربته بين أهل الفساد من أهل الشبهات والشهوات ، فكلهم يكرهه ويؤذيه ، لمخالفة طريقته لطريقتهم ، ومقصودِه لمقصودهم ، ومباينته لما هم عليه .

ولما مات داود الطائى[٢]

---

(١) أى تكون منزلته بين الناس ضائعة . ومعنى يجوز : يسير

(٢) هو العالم الربانى الزاهد ، أحد العلماء الأعلام ، أبو سليمان داود بن نصير الطائى الكوفى ، شغل نفسه بالعلم والفقه وغيره من العلوم ، وكان يختلف إلى أبى حنيفة ، ثم تزهد ، وأغرق كتبه فى الفرات ؛ وكان كبير الشأن فى باب الزهد والورع ، حتى إنهم دخلوا عليه فى مرض موته ، فلم يجدوا فى بيته شيئاً ، غير دَنٍّ صغير فيه خبز يابس ، ومطهرة ، ولبنة كبيرة من التراب هى مخدته . وكان يرفض العطاء .

وكان يقول لأصحابه : « إياكم أن يتخذ أحدكم فى داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة » . وقيل له مرة : دلنا على رجل نجلس إليه فنربح ! فقال : « تلك ضالة لا توجد » ! . . . وكان يقول : « قد مللنا الحياة لكثرة ما نفعل من الذنوب » ! ! . . .

توفى سنة ستين ومائة ، وقيل سنة خمس وستين ومائة .

قال ابن السماك[1] : « إن داود نظر بقلبه إلى ما بين يديه ، فأغشى

---

(١) فى تاريخ بغداد : « لما مات داود بن نصير الطائى جاء ابن السماك فجلس على قبره ثم قال : أيها الناس ؛ إن أهل الزهد فى الدنيا تعجلوا الرواح على أبدانهم ، مع يسير الحساب غداً عليهم ، وإن أهل الرغبة تعجلوا التعب على أبدانهم ، مع ثقل الحساب عليهم غدا ، والزهادة راحة لصاحبها فى الدنيا والآخرة ، والرغبة تتعب صاحبها فى الدنيا والآخرة ... رحمك الله أبا سليمان ؛ ما كان أعجب شأنك ، ألزمت نفسك الصبر حتى قومتها عليه ، أجعتها وإنما تريد شبعها ، وأظمأتها وإنما تريد ريها ، أخشنت المطعم وإنما تريد أطيبه ، وخشّنت الملبس وإنما تريد لينه . يا أبا سليمان ، أما كنت تشتهى من الطعام طيِّبه ، ومن الماء بارده ، ومن اللباس لينه ؟ . بلى ! ولكنك أخَّرت ذلك لما بين يديك ، فما أراك إلا قد ظفرت بما طلبت ، وما إليه رغبت ، فما أيسر ما صنعت وأحقر ما فعلت ، فى جنب ما أمَّلت ، فمن سمع بمثلك عزم عزمك ، أو صبر صبرك ؟ ! . آنس ما تكون إذا كنتَ بالله خاليا ، وأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس ، سمعتَ الحديث وتركت الناس يحدِّثون ؛ تفهمت فى دين الله وتركتهم يفتون ، لا تذلك المطامع ، ولا ترغب إلى الناس فى الصنائع ، ولا تحسد الأخيار ، ولا تعيب الأشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الإخوان هدية ، سجنتَ نفسك فى بيتك ، فلا محدث لك ، ولا ستر على بابك ، ولا قُلة تبرد فيها ماءك ، ولا قصعة تثرد فيها غداءك وعشاءك ، فلو رأيت جنازتك وكثرة تابعك ، علمت أنه قد شرَّفك وكرَّمك ، وألبسك رداء عملك ، فلو لم يرغب عبد فى الدنيا إلا لمحبة هذا النشر الجميل ، والتابع الكثير ، لكان حقيقاً بالاجتهاد ، فسبحان من لا يضيع مطيعاً ، ولا ينسى لأحد صنيعاً . . .

وفرغ من دفنه وقام الناس » . ج ٨ ص ٣٥٤و٣٥٥ .

بصرُ قلبه بصرَ العيون ، فكأنه لم ينظر إلى ما أنتم إليه تنظرون ، وكأنكم لا تنظرون إلى ما إليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يعجب ، استوحش منكم أنه كان حيًّا وسط موتى » .

ومنهم من كان يكرهه أهله وولده لاستنكار حاله :

سمع عمر ابن عبد العزيز[1]

= وابن السماك هو أبو العباس محمد بن صبيح بن السماك ، ولقد دخل على هارون فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن لك بين يدى الله تعالى مقاما ، وإن لك من مقامك منصرفا ، فانظر إلى أين منصرفك ، إلى الجنة أم إلى النار » فبكى هارون . وكان يقول : « من أذاقته الدنيا حلاوتها لميله إليها جرعته الآخرةُ مرارتها لتجافيه عنها » . ولما حضرته الوفاة قال : « اللهم إنى وإن كنت أعصيك لقد كنت أحب فيك من يطيعك » . وأسند ابن السماك عن عدة من التابعين ، وهو كوفى ، لكنه قدم بغداد ، فمكث بهامدة ، ثم عاد إلى الكوفة ، فتوفى فيها سنة ثلاث وثمانين ومائة .

(١) هو الخليفة الراشد والإمام العادل أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص القرشى الأموى التابعى بإحسان . أجمعوا على جلالته وفضله ، ووفور علمه وصلاحه ، وزهده وورعه وعدله ، وشفقته على المسلمين ، وحسن سيرته فيهم ، وبذل وسعه فى الاجتهاد فى طاعة الله ، وحرصه على السنة ؛ ومناقبه كثيرة أُلفت فيها الكتب قديماً وحديثاً ؛ وأمه هى حفصة بنت عاصم بن عمر بن الخطاب واسمها ليلى ، وتولى الخلافة بعد سليمان ابن عبد الملك ، ومكث فيها سنتين وخمسة أشهر ، وكان قبل الخلافة من أعطر الناس وألبسهم ، فلما استخلف قوَّموا ثيابه باثنى عشر درهما ، وهو المجدِّد =

امرأته[1] مرة تقول : « أراحنا الله منك » . قال : « آمين » ! ...

وقد كان السلف قديماً يصفون المؤمن بالغربة فى زمانهم ، كما سبق مثله عن الحسن ، والأوزاعى ، وغيرهم .

ومن كلام أحمد بن عاصم الأنطاكى[2]

=للإسلام على رأس المائة الأولى . وقد رد المظالم وأتى ضروبا من الإحسان فى جهات كثيرة ، وكان آية فى الورع والزهد والتقشف .

مات فى رجب سنة إحدى ومائة .

(١) هى فاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

(٢) هو أبو عبد الله — وقيل أبو على — أحمد بن عاصم الأنطاكى ، الذى كان يسميه الدارانى : (جاسوس القلوب) لحدة فراسته ؛ وهو من أقران بشر الحافى ، والسرى السقطى ، والحارث المحاسبى ؛ ويقال إنه رأى الفضيل بن عياض . وكان يقول : « إذا جالستم أهل الصدق من الفقراء فجالسوهم بالصدق ، فإنهم جواسيس القلوب ، يدخلون فى قلوبكم ، ويخرجون منها ، وأنتم لا تشعرون » . ومن كلامه قوله : « قرة العين ، وسعة الصدر ، وروح القلب ، وطيب النفس ، من أمور أربعة : الاستبانة للحجة ، والأنس بالأحبة ، والثقة بالعدة ، والمعاينة للغاية » . وقوله : « أنفع العقل ما عرفك نعم الله عليك ، وأعانك على شكرها ، وقام بخلاف الهوى » . وسئل عن الإخلاص فقال : « إذا عملت عملا صالحاً ، فلم تحب أن تذكر به ، وتعظم من أجل عملك ، ولم تطلب ثواب عملك من أحد سواه ، فذلك إخلاص عملك » . وقال : « أنفع الإخلاص ما نفى عنك الرياء ، والتزين ، والتصنع » . وقال : « من علامة قلة معرفة العبد بنفسه قلة الحياء ، وقلة الخوف » . وقال : « أضر المعاصى عملك الطاعات بالجهل ، هو أضر عليك من المعاصى بالجهل » . وقال : « إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك » . وقال : « قال الله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ونحن نستزيد من الفتنة » ! ! . . .

— وكان من كبار العارفين فى زمان أبى سليمان الدارانى[1] — قال :

« إنى أدركت من الأزمنة زمانا عاد فيه الإسلامُ غريبا كما بدأ ، وعاد وصفُ الحق فيه غريباً كما بدأ ، إن ترغبْ فيه إلى عالم وجدتَه مفتونا بحبِّ الدنيا ، يحب التعظيم والرئاسة ؛ وإن ترغبْ فيه إلى عابد وجدته جاهلا فى عبادته ، مخدوعاً صريعا ، غدره إبليس ،

---

(١) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى العبسى ، من أهل داريَّا ، وهى من قرى دمشق — والنسبة إليها دارانى على غير قياس — وهو من بنى عبس ، وكان كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع ، ويعد من أقطاب الصوفية ، وأسند الحديث ، وكان يقول : « ليت قلبى فى القلوب كثوبى فى الثياب » . وكانت ثيابه وسَطا ؛ ويقول : « لاينبغى لفقير أن يزيد فى نظافة ثيابه على نظافة قلبه ، بل يشاكل ظاهره باطنه » . وقال : «من صارع الدنيا صرعته» . وقال : « من أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله ، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ، ومن صدق فى ترك شهوته ذهب الله بها من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تُركت له » . وقال : « خير السخاء ماوافق الحاجة » . وقال : « ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم — الصوفية — أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة » . وقال : « أبلغ الأشياء فيما بين الله وبين العبد المحاسبة » . وقال : « أفضل الأعمال خلاف هوى النفس » . وقال : « لو اجتمع الناس على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ماقدروا عليه ، ومن رأى لنفسه قيمة لم يجد حلاوة الخدمة » .

توفى سنة خمس عشرة ومائتين ، ورُئى بعد موته فقيل له : « مافعل الله بك ؟ » قال : « غفر لى ، وما كان شىء أضر علىَّ من إشارات القوم ، لما فى التكلم بدقائق العلوم من التمييز على الأقران » .

قد صعد به إلى أعلى درجات العبادة ، وهو جاهل بأدناها ، فكيف له بأعلاها ؛ وسائر ذلك من الرَّعَاع هَمَجٌ عُوجٌ ، وذئاب مختلسة ، وسباع ضارية ، وثعالب ضوار . هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن ودعاة الحكمة[1] » خرَّجه أبو نعيم فى الحلية[2] ؛

---

(١) وردت هذه الجملة بصيغة أخرى فى طبقات الشعرانى ، وهى : « ما كنت أظن أنى أدرك زمانا يعود الإسلام فيه غريبا ، فقيل له : وهل عاد الإسلام غريبا ؟ . قال : نعم ؛ إن ترغبْ فيه إلى عالم تجده مفتونا بالدنيا ، يحب الرياسة والتعظيم ، ويأكل الدنيا بعلمه ، ويقول : أنا أولى بها من غيرى ، وإن ترغب فيه إلى عابد معتزل فى جبل تجده مفتونا جاهلا فى عبادته ، مخدوعا لنفسه ولإبليس ، قد صعد إلى أعلى درجات العبادة ، وهو جاهل بأدناها ، فكيف بأعلاها ، فقد صارت العلماء والعباد سباعاً ضارية ، وذئاباً مختلسة ، فهذا وصف أهل زمانك من أهل العلم والقرآن ورعاة الحكمة ، فاعتبروا ياأولى الأبصار » . والرعاع بوزن السحاب : الأحداث الطغام ، والمفرد رعاعة ، وهو من لافؤاد له ولا عقل . والهمج : ذباب صغير كالبعوض ، يسقط على وجوه الغنم والحمير ، والهمج أيضاً الغنم المهزولة ، والحمقى ، والنعاج الهرمة . والعُوج : جمع أعوج .

(٢) هو تاج المحدثين ، وأحد أعلام الدين ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله ابن أحمد الحافظ الصوفى الأحول الشافعى ، سبط الزاهد محمد بن يوسف البنا ، تفرد بعلو الإسناد ، مع الحفظ والاستبحار من الحديث وفنونه ، روى عن جماعة ، وصنف التصانيف الكبار المشهورة فى الأقطار ، ومنها كتاب (حلية الأولياء) ، وهو فى ثمانية مجلدات . قال ابن ناصر الدين : « ولما صنف كتاب الحلية حملوه إلى نيسابور ، فبيع بأربعمائة دينار » . توفى بأصبهان فى شهر المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة ، وله من العمر أربع وتسعون سنة .

فهذا وصف أهل زمانه ، فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهى التى لم تخطر بباله ، ولم تَدُرْ فى خياله ؟ .

وخرّج الطبرانى ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « المتمسك بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائة شهيد » .

وخرج أبو الشيخ الأصبهانى[١] ، بإسناده عن الحسن ، قال : « لو أن رجلا من الصدر الأول بُعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً إلا هذه الصلاة » . ثم قال : « أما والله لئن عاش إلى هذه المنكرات فرأى صاحبَ بدعة يدعو إلى بدعته ، أو صاحبَ دنيا يدعو إلى دنياه ، فعصمه الله عز وجل ، وقلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح ، فيتبع آثارهم ، ويستن بسنتهم ، ويتبع سبيلهم ، كان له أجر عظيم » .

وروى ابن المبارك[٢] ، عن الفضيل ، عن الحسن ، أنه ذكر

---

(١) هو الثقة المحدث أبو الشيخ محمد بن حسين بن إبراهيم بن زياد الأصبهانى ، أبهرى الأصل ، سكن بغداد وحدث بها ، وروى عنه أبو بكر الشافعى ، وتوفى ببغداد سنة ست وثمانين ومائتين ، وقيل سنة تسعين ومائتين .

(٢) هو الإمام ، المجمع على إمامته وجلالته ، أبو عبد الرحمن عبد الله ابن المبارك بن واضح الحنظلى المروزى ، وهو من تابعى التابعين ، وكان أبوه تركيا مملوكا لرجل من همدان ، وأمه خوارزمية ، جمع العلم والفقه والأدب =

الغنىّ[1] المترف ، الذى له سلطان ، يأخذ المال ويدعى أنه لا عقاب فيه ؛ وذكر المبتدع الضال الذى خرج بسيفه على المسلمين ، وتأول ما أنزل الله فى الكفار على المسلمين ؛ ثم قال : « سنتكم — والذى لا إله إلا هو — بينهما ؛ بين الغالى والجافى ، والمترف والجاهل ؛

= واللغة والزهد والشدة فى رأيه ، وقلة الكلام فيما لا يعنيه ، وقلة الخلاف على أصحابه . وكان يتمثل كثيراً بهذين البيتين :

وإذا صاحبتَ فاصحب صاحبا ذا حيـــاء وعفاف وكرم

قائلا للشىء : لا ، إن قلتَ : لا وإذا قلت : نعم ، قال : نعم !

ومدحه عمار بن الحسن بقوله :

إذا سار عبد الله من مروَ ليلةً فقد سار منها نورُها وجمالها

إذا ذُكر الأحبار من كل بلدة فهم أنجم فيها ، وأنت هلالها

وكان بعضهم يسميه (أمير المسلمين) ، لأنهم يعتبرونه فى الحديث كأمير المؤمنين فى الناس . ولما قدم ابن المبارك الرقة وهارون الرشيد بها ، أشرفت أم ولد له من قصر ، فرأت الغبرة قد ارتفعت ، والنعال قد تقطعت ، والناس قد تجمعوا عليه ، فقالت : من هذا ؟ . قالوا : هذا عالم خراسان ابن المبارك . قالت : هذا والله المُلك ، لا مُلْك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بالسوط والخشب !.

توفى فى هيت — وهى مدينة على الفرات فوق الأنبار — منصرفا من الغزو ، فى رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة .

(١) يقول أبو تراب النخشبى : « حقيقة الغنى أن تستغنى عمن هو مثلك ، وحقيقة الفقر أن تفتقر إلى من هو مثلك » .

فاصبروا[١] عليها ، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس ، الذين لم يأخذوا مع أهل الإتراف فى إترافهم ، ولا مع أهل البدع فى أهوائهم ، وصبروا على سنتهم حتى أتوا ربهم ، فكذلك إن شاء الله فكونوا » .

ثم قال : « والله لو أن رجلا أدرك هذه المنكرات ؛ يقول هذا : هلمَّ إلى ؛ ويقول هذا : هلمَّ إلى ؛ فيقول : لا أريد إلا سنة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يطلبها ويسأل عنها ؛ إن هذا ليعرض له أجر عظيم ؛ فكذلك فكونوا إن شاء الله تعالى » .

ومن هذا المعنى ما رواه أبو نعيم وغيره ، عن كميل بن زياد[٢] ،

---

(١) قال يحيى بن معاذ : « عند نزول البلاء تظهر حقائق الصبر ، وعند مكاشفة المقدور تظهر حقائق الرضا » . وقال عمرو بن عثمان المكى : « لقد وبخ الله تعالى التاركين للصبر على دينهم ، بما أخبرنا عن الكفار أنهم قالوا : (امشوا واصبروا على آلهتكم) فهذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينه » . وقال سهل التسترى : « لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر » . وسئل عبد الله بن محمد الخراز الرازى عن علامة الصبر ، فقال : « ترك الشكوى ، وإخفاء الضر والبلوى » .

(٢) هو كميل بن زياد بن نهيك بن الهيثم بن سعد بن مالك بن الحارث الكوفى الحنفى التابعى الثقة ، وفى نسبه اختلاف ، وهو من عُبّاد أهل الكوفة ، روى عن جماعة ، وروى عنه جماعة ، وكان ثقة قليل الحديث ، وكان من رؤساء الشيعة ، وقال فيه ابن عمار : رافضى : وقيل إنه من الضعفاء لا يحتج به . قتله الحجاج سنة ثنتين وثمانين ، وقيل إنه مات سنة ثمان وثمانين .

عن على بن أبى طالب[١] ، رضى الله عنه ، أنه قال[٢] :

---

(١) هو أمير المؤمنين الإمام أبو الحسن وأبو تراب على بن أبى طالب ابن عبد المطلب بن هاشم ، وأمه هى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، أول هاشمية ولدت هاشميا ، وعلى هو ابن عم الرسول ، وأخوه بالمؤاخاة ، وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين ، وهو أبو السبطين ، وأحد العشرة ، ورابع الخلفاء ، وأحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ، وأحد السابقين إلى الإسلام ، وقيل إنه أول من أسلم ، والصحيح أن أول من أسلم خديجة فأبو بكر فعلى . أسلم على وهو ابن عشر سنين ، وشهد سائر المشاهد إلا غزوة تبوك إذ استخلفه النبى على المدينة ؛ ومواقفه فى القتال سائرة مشهورة .

وكان مثلا فى الزهد ، ومن قوله : « الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على مخالطة الكلاب » . ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ غير أنه لا نبى بعدى » . وقال فيه : « من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه » .

ولى الخلافة سنة خمس وثلاثين ، ومكث فيها خمس سنوات ، وكان مثلا للإنصاف والعدل ؛ وضربه الشقى ابن ملجم بسيف مسموم ، وتوفى رضى الله عنه فى الكوفة ، ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين ، وهو ابن ثلاث وستين سنة على الأصح .

(٢) العبارة التالية جزء من كلام قاله الإمام على لكميل بن زياد النخعى — انظر نهج البلاغة ج ٣ ص ١٨٦ طبعة الاستقامة — ومناسبته أن الإمام أخذ بيد كميل ، وخرج به إلى المقبرة ، فلما أصحر تنفس الصعداء ، وقال له : « يا كميل بن زياد ، إن هذه القلوب أوعية . فخيرها أوعاها ، فاحفظ عنى ما أقول : الناس ثلاثة . . . » إلخ .

« الناس ثلاثة : عالم ربَّانى[١] ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهَمَج رَعَاع أتباعُ كلٍّ ناعق[٢] ، يميلون مع كلِّ صائح[٣] ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركنٍ وثيق » . .

ثم ذكر كلاما فى فضل العلم[٤] ، إلى أن قال :

«هَا ، إن ههنا لعلما جَمًّا — وأشار بيده إلى صدره — لو أصبتُ له حَمَلَةً ؛ بل أصيب لَقِنًا غير مأمون عليه[٥] ، مستعملا آلة الدين

---

(١) العالم الربانى : هو المتأله العارف بالله ؛ والمتعلم على طريق النجاة إذا أتم علمه نجا .

(٢) الهمج — محركة — الحمقى من الناس ، وفى الأساس أن الهمج ضرب من الذباب ، وقيل الذباب الصغير الذى يقع على وجوه الحمير وأعينها ، وقيل : دود يتفقأ عن ذباب وبعوض ، ومن المجاز قولهم : ما هم إلا همج رعاع . والرعاع — بوزن السحاب — الأحداث الطغام ، الذين لا منزلة لهم فى الناس . والناعق مجاز عن الداعى إلى حق أو باطل .

(٣) هكذا هنا ، وفى نهج البلاغة : « يميلون مع كل ريح » .

(٤) نصه : « يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله . يا كميل بن زياد ؛ معرفة العلم دين يدان به ، به يكسب الإنسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه . يا كميل ، هلك خُزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة . . . ها . . . » الخ .

(٥) الحملة : جمع حامل . وأصبت بمعنى وجدت ، أى لو وجدت له حاملين لأبرزته وبثثته . واللقن — بفتح فكسر — من يفهم بسرعة ، ولكنه لا يؤمن ولا يستجيب ، بل يتاجر بالدين للدنيا .

للدنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده ، وبحججه على أوليائه ، أو مقلداً لحملة الحق ، لا بصيرة فى أحنائه ، ينقدح الشكُّ فى قلبه لأول عارضٍ من شبهة[١] ، ألا لاذا ولا ذاك[٢] ؛ أو منهوما باللذة ، سَلِسَ القياد[٣] للشهوة ؛ أو مُغْرما بالجمع والادخار ، ليسا من رعاةِ الدين فى شىء ، أقرب شىء شبها بهما الأنعام السائمة[٤] ؛ كذلك يموت العلمُ بموت حامليه ، اللهم بلى لا تخلو الأرضُ من قائم لله بحجة ، إما ظاهرا مشهورا ، أو خائفا مغمورا[٥] ، لئلا تبطل حججُ الله وبيناته . وكم ذا ؟ وأين[٦] ؟ . . أولئك — والله — الأقلون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا

---

(١) لأنه لما كان مقلداً سارعت الريبة إلى قلبه لأقل الشبهات والعوارض ، فلا باع له فى دقائق الحق وخفاياه .

(٢) أى لا يصلح لحمل علمى هذا ولا ذاك .

(٣) المنهوم : المفرط فى شهوة الطعام ، وسلس القياد : السهل اللين .

(٤) الأنعام : البهائم . والسائمة : التى ترعى .

(٥) أى متخفياً متستراً لا يقدر على الظهور من البغى والعدوان .

(٦) هذا استفهام من الإمام عن عدد الصالحين لهذه المهمة ، لأنه يستقلهم ؛ واستفهام عن أماكنهم ، كأنها من قلتهم خفية لا تعرف .

ما استوعره المترفون[١] ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها[٢] متعلقةٌ بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاةُ إلى دينه ؛ آهٍ ، ألا شوقا إلى رؤيتهم !. انصرف يا كميل إذا شئت » .

فقسم أميرُ المؤمنين رضى الله عنه حملة العلم إلى ثلاثة أقسام :

قسم هم أهلُ الشبهات ، وهم من لا بصيرةَ له من حملة العلم ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة ، فتأخذه الشبهةُ ، فيقع فى الحيرة والشكوك ، ويخرج من ذلك إلى البدع[٣] والضلالات .

---

(١) استوعره : أى عده وعرا أى خشنا ، والمترفون المنعمون ، وهو يعنى الزهاد الذى يستسهلون من التقشف مايعده أهل الترف صعبا .

(٢) يقول على بن سهل الأصبهانى : « العقل مع الروح يدعوان إلى الآخرة ومخالفة الهوى والشهوات ، فلذلك سمى روحا » . ويقول أبو بكر بن أبى سعدان : « خُلقت الأرواح من النور ، وأُسكنت ظُلم الهياكل ، فإذا قوى الروح جانس العقل ، وتواترت الأنوار ، وأزالت عن الهياكل ظلمتها ، فصارت الهياكل روحانية بأنوار الروح والعقل ، فانقادت ولزمت طريقتها ، ورجعت الأرواح إلى معدنها من الغيب ، تطالع مجارى الأقدار ، فهذه تطالع الجارى من الأقدار ، وهذه ترضى بموارد القضاء والقدر ، وهـذا من لطائف الأحوال » ! ! ...

(٣) يقول الحارث المحاسبى : «من طُبع على البدعة ، متى يشيع فيه الحق ؟» . وسئل أبو حفص النيسابورى : ماهى البدعة ؟ فقال : « التعدى فى الأحكام ، والتهاون بالسنن ، واتباع الآراء والأهواء ، وترك الاقتداء والاتباع » .

وقسم هم أهل الشهوات ، وحظُّهم نوعان : أحدهما من يطلب الدنيا بنفس العلم ، فيجعل العلمَ آلةً لكسب الدنيا ؛ والثانى مَنْ هَمُّه جمعُ الدنيا واكتنازُها وادخارها ؛ وكلٌّ هؤلاء ليسوا من رعاة الدين ، وإنما هم كالأنعام ؛ ولهذا شبَّه الله تعالى مَن حمل التوراةَ ثم لم يحملها بالحمار الذى يحمل أسفاراً[1] ؛ وشبَّه عالم السوء الذى انسلخ من آيات الله ، وأخلد إلى الأرض ، واتَّبع هواه ، بالكلب[2] ؛ والكلبُ والحمار أخسُّ الأنعام ، وأضلُّ سبيلا .

والقسم الثالث من حملة العلم هم أهله ، وحملته ورعاتُه ، والقائمون بحجج الله وبيِّناته ؛ وذكر أنهم الأقلون عددا ، الأعظمون قدرا ؛ إشارة إلى قلة هذا القسم ، وغربته من أهل العلم .

وقد قسم الحسنُ البصرى رضى الله عنه حملةَ القرآن إلى قريبٍ

---

(١) يقول الله تعالى فى سورة الجمعة : « مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئسْ مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله ، والله لايهدى القوم الظالمين » . آية ٥ .

(٢) يقول الله تعالى فى سورة الأعراف : « واتل عليهم نبأَ الذى آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » . آية ١٧٥ و ١٧٦ .

من هذا التقسيم الذى قسمه على رضى الله عنه لحملة العلم .

قال الحسن :

« قراء القرآن ثلاثة أصناف :

صنف اتخذوه بضاعة ، فيتأكلون به ؛ وصنف أقاموا حروفه ، وضيَّعوا حدودَه ، واستطالوا به على أهل بلادهم ، واستدروا به لطلب الولاية .

كثر هذا الضربُ من حملة القرآن — لا كثَّرهم الله[1] ! —

وضرب عَمَدوا إلى دواء القرآن ، فوضعوه على داء قلوبهم ، فركدوا به فى محاريبهم ، وحَنُّوا به فى برانسهم[2] ، واستشعروا

---

(١) ولعل هذا الصنف من القراء هو المقصود بقول الفضيل بن عياض : « تباعدْ من القراء ، فإنهم إن أحبُّوك مدحوك بما ليس فيك ، وإن أبغضوك شهدوا عليك ، وقُبل منهم » . وقول بشر الحافى : « شاطرٌ سخى أحب إلى من قارئ لئيم » . وقول يحيى بن معاذ الرازى : « اجتنبتُ صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين » . وقول ابن خبيق الأنطاكى : « إذا دنا الرجل القارئُ من معصية يقول القرآن فى جوفه : مالهذا حملتنى ! » . وقول أبى بكر الرازى : « الناس ثلاثة : العلماء والأمراء والقراء ، فإذا فسد الأمراء فسد المعاش ، وإذا فسد العلماء فسدت الطاعات ، وإذا فسد القراء فسدت الأخلاق » .

(٢) فى الأساس : ركد القوم فى أماكنهم هدءوا ، وهذه مراكدهم ومراكزهم . والمحاريب جمع محراب ، والمحراب هو الموضع العالى المرتفع ، وصدر المجلس ، ومنه سمى محراب المسجد وهو صدره وأشرف موضع فيه . وحنوا :=

الخوف(١) ، وارتدوا الحزن ؛ فأولئك الذين يسقى الله بهم الغيثَ ، وينصر بهم على الأعداء ؛ واللهِ ، لهؤلاء الضربُ فى حملة القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر(٢) بين قراء القرآن » ! .

فأخبر أن هذا القسم — وهم قراء القرآن ، جعلوه دواءً لقلوبهم، فآثر لهم الخوف(٣)

= الحنين هو الاشتياق ، مأخوذ من ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها ، والحنان الرحمة والرزق ، واستحنه الشوق : استطربه . والبرانس : جمع برنس ، وهو كل ثوب رأسه منه ملتزق به من دُرَّاعة أو جبة أو غيرها ؛ وقيل إن البرنس قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام من القطن .

(١) أى جعلوا الخوف شعاراً لهم ، والشعار هو الثوب الملاصق للجسم .

(٢) الكبريت الأحمر : هو الياقوت الأحمر ، والذهب ، وجوهر معدنه بوادى النمل . ويطلق الكبريت أيضاً على الموقَد به . والأحمران: الذهب والزعفران.

(٣) قال ذو النون المصرى : « إذا صح اليقين فى القلب صح الخوف فيه » وقال : « الخوف رقيب العمل ، والرجاء شفيع المحن » . وقال شقيق البلخى : « من لم يكن معه ثلاثة أشياء لاينجو من النار : الأمن ، والخوف ، والاضطراب » . وقال أبو سليمان الدارانى : « إذا غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت » . وقال : « إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات ، وطرد الغفلة من القلب » . وقال : « لكل شىء صدق ، وصدق اليقين الخوف من الله تعالى » . وقال حاتم الأصم : « أصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف والرجاء والحب ؛ وأصل المعصية ثلاثة أشياء : الكبر والحرص والحسد » . وقال ابن خبيق الأنطاكى : « خلق الله القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن للشهوات ، ولايمحو الشهوات من القلوب إلاخوف مزعج أوشوق مقلق» . =

والحزن(١) — أعزُّ من الكبريت الأحمر بين قراء القرآن .

ووصف أميرُ المؤمنين رضى الله عنه هذا القسم من حَمَلة العلم بصفات منها : أنه هجم بهم العلمُ على حقيقة البصيرة ؛ ومعنى ذلك أن العلم دلهم على المقصود الأعظم ، وهو معرفة الله ، فخافوه وأحبُّوه(٢) ، حتى سهَّل ذلك عليهم كلَّ ما تعسر على غيرهم ، فلم يصل

وقال : « أنفع الخوف ماحجزك عن المعاصى ، وأطال منك الخوف على مافاتك ، وألزمك الفكرة فى بقية عمرك » . وقال أبو تراب النخشبى : « الذى منع الصادقين الشكوى إلى غير الله الخوفُ من الله عز وجل » . وقال عمرو بن عثمان المكى : « اعلم أن العلم قائد ، والخوف سائق ، والنفس حرون بين ذلك جَموح خداعة رواغة ، فاحذرها ، وراعها بسياسة العلم ، وسقها بتهديد الخوف ، يتم لك ما تريد » . وسئل محمد بن الفضل البلخى : ماثمرة الشكر ؟ فقال : « الحب لله والخوف منه » . وقال أبو محمد الحريرى : « الرجاء طريق الزهاد ، والخوف سلوك الأبطال » . وقال أبو عمر الدمشقى : « حقيقة الخوف ألّا تخاف مع الله أحدا » . وقال أبو بكر الواسطى : « الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب » . وقال محمد بن عليان : « الخوف له أثر فى القلب ، يؤثر على ظاهر صاحبه الدعاءَ والتضرع والانكسار » . وقال محمد بن خفيف : « الخوف اضطراب القلوب من سطوة المعبود » .

(١) قال الحارث المحاسبى : « الحزن على وجوه : حزن على فقد أمر يحب وجوده ، وحزن مخافة أمر مستقبل ، وحزن لما أحبَّ من الظفر بأمر فيتأخر عن مراده ، وحزن يتذكر من نفسه مخالفات الحق فيحزن له » .

(٢) يقول معروف الكرخى : « المحبة ليست من تعليم الخلق ، إنما هى من مواهب الحق وفضله » . ويقول حاتم الأصم : « من ادعى ثلاثا بغير =

إلى ما وصلوا إليه مَنْ وقف مع الدنيا وزينتها وزهرتها ، واغترَّ بها ، ولم يباشر قلبه معرفة(١) الله وعظمتُه وإجلاله ؛ فاستلانوا ما استوعر

ثلاث فهو كذَّاب : منْ ادعى حبَّ الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ، ومنْ ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب ، ومن ادعى حب النبي صلى الله عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب » . وقال رويم : « من أحب لعوض بغَّض العوضُ إليه محبوبه » . وقال سمنون : « لايعبر عن الشيء إلا بما هو أرق منه ، ولاشيء أرق من المحبة ، فبم يعبر عنها ؟ » .

(١) أفاض الصوفية فى القول فى المعرفة . يقول ذو النون : « إياك أن تكون بالمعرفة مدعيا ، أو تكون بالزهد محترفا ، أو تكون بالعبادة متعلقا » . ويقول الحارث المحاسبي : « العلم يورث المخافة ، والزهد يورث الراحة ، والمعرفة تورث الإنابة » . وقال شقيق البلخى : « من أراد أن يعرف معرفته بالله ، فلينظر إلى ماوعده الله ووعده الناس ، بأيهما قلبهُ أوثق » . وقال أبو سليمان الداراني : « علِّموا النفوس الرضا بمجارى المقدور ، فنعم الوسيلة إلى المعرفة » . وقال حاتم الأصم : « من أصبح وهو مستقيم فى أربعة أشياء فهو يتقلب فى رضا الله : أولها الثقة بالله ، ثم التوكل ، ثم الإخلاص ، ثم المعرفة ، والأشياء كلها تتم بالمعرفة » . وقال أحمد بن خضرويه : « حقيقة المعرفة المحبة له بالقلب ، والذكر له باللسان ، وقطع الهمة عن كل شيء سواه » . وقال الجنيد : « الرضا ثانى درجات المعرفة ، فمن رضي صحت معرفته بالله ، بدوام رضاه عنه » . وقال : « من عرف الله لايسر إلا به » . وقال شاه الكرمانى : « من عرف ربه نسى كل مادونه ، ومن جهل ربه تعلق بكل شيء دونه ، ومن اعتز بالعلم فاز ، ومن اعتز بالجهل خاب وخسر » . وقال عمرو المكى : « المعرفة صحة التوكل على الله تعالى » . وقال أبو بكر الوراق : « من صحت معرفته بالله ظهرت عليه الهيبة والخشية » . وقال=

منه المترفون ، فإن المترف الواقف مع شهوات الدنيا ولذتها يصعب عليه تركُ لذاتها وشهواتها ، لأنه لا عِوَضَ عنده من لذات الدنيا إذا تركها ، فهو لا يصبر على تركها .

وهؤلاء فى قلوبهم العِوَضُ الأكبر ، بما وصلوا إليه من لذة معرفة الله ومحبته وإجلاله ، كما كان الحسن يقول : « إنما أحباء الله هم الذين ورثوا طيبَ الحياة ، وذاقوا نعيمها ، بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم ، وبما وجدوا من لذة حبِّه فى قلوبهم » . من كلام يطول ذكرُه ههنا فى هذا المعنى .

وإنما أنس هؤلاء[1] بما استوحش منه الجاهلون ، لأن الجاهلين بالله يستوحشون من ترك الدنيا وشهواتها ، لأنهم لا يعرفون سواها ، فهى أنسهم ؛ وهؤلاء يستوحشون من ذلك ، ويستأنسون

= أبو العباس بن عطاء : « من ألزم نفسه آداب السنة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فى أوامره وأفعاله وأخلاقه ، والتأدب بآدابه قولاً وفعلا ، وعزماً وعقداً ونية » . وقال ممشاذ الدينورى : « جماع المعرفة صدق الافتقار إلى الله تعالى » .

(١) يقول رويم : « الأنس أن تستوحش مما سوى محبوبك » . وقال على الأصبهانى : « الأنس بالله أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله ، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله » . وقال أبو العباس الطوسى : « إن الله تعالى وسم الدنيا بالوحشة ، لئلا يكون أنس المطيعين إلا بالله عز وجل » . وسئل أبو حمزة الخراسانى عن الأنس فقال : « ضيق الصدر عن معاشرة الخلق » .

بالله وبذكره ، ومعرفته ومحبته[١] ، وتلاوة كتابه . والجاهلون بالله يستوحشون من ذلك ، ولا يجدون الأنس به .

ومن صفاتهم التى وصفهم بها أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنهم صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقة بالنظر الأعلى ؛ وهذه إشارة إلى أنهم لم يتخذوها وطنا ، ولا رضوا بها إقامةً ولا مسكنا ؛ إنما اتخذوها ممرا ، ولم يجعلوها مقرا ؛ وجميعُ الكتب والرسل

---

(١) سئل ذو النون عن المحبة فقال : « أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ، وألاَّ تخاف فى الله لومة لائم ، مع العطف على المؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدين » . وقال معروف الكرخى : « المحبة ليست من تعليم الخلق ، إنما هى من مواهب الحق وفضله » . وقال أحمد بن الحوارى : « علامة حب الله طاعة الله ، فإذا أحب الله العبد أحبه ، ولا يستطيع العبد أن يحب الله حتى يكون الابتداء من الله بالحب له ، وذلك حين عرف منه الاجتهاد فى مرضاته » . وقال يحيى بن معاذ : « على قدر حبك لله يحبك الخلق ، وبقدر خوفك من الله تعالى يهابك الخلق ، وعلى قدر شغلك بالله تعالى يشتغل فى أمرك الخلق » . وسئل الجنيد عن المحبة فقال : « أن تحب مايحب الله تعالى فى عباده ، وتكره ما يكره الله تعالى فى عباده » . وقال عمرو بن عثمان المكى : « اعلم أن المحبة داخلة فى الرضا ، ولا محبة إلا بالرضا ، ولا رضا إلا بمحبة ، لأنك لا تحب إلا ما رضيتَ وارتضيت ، ولا ترضى إلا ما أحببت » . وقال محمد بن على الترمذى : « حقيقة محبة الله دوام الأنس بذكره » .

أوصت بهذا ، وقد أخبر الله فى كتابه عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه فى وعظه لهم : « ياقوم ، إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ ، وإن الآخرة هى دار القرار[١] » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عمر : « كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابرُ سبيل ، فكأنك بالدنيا ولم تكن ، وبالآخرة ولم تزل » . وفى رواية : « وعُدَّ نفسَك من أهل القبور[٢] » .

ومن وصايا المسيح المروية عنه عليه السلام أنه قال لأصحابه : « اعبروها ولا تعمروها » . وعنه عليه السلام أنه قال : « من ذا الذى

---

(١) سورة غافر ، آية ٣٩ . وجاء فى الآية التى قبلها : « وقال الذى آمن يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد » .

(٢) روى البخارى والترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بمنكبى ، فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعُدَّ نفسك من أهل القبور » . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

وفى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٧٨ طبعة سنة ١٣٧٣ هـ : « حدثنا يحيى بن حبيب بن عربى ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ليث عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدى ، فقال : « ياعبد الله ، كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو كأنك عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » .

يبنى على موج البحر داراً ؟ تلك الدنيا ؛ فلا تتخذوها قرارا » .

فالمؤمن فى الدنيا كالغريب المجتاز ببلدة غير مستوطن بها ، فهو مشتاق إلى بلده ، وهمُّه الرجوعُ إليه ، والتزود بما يوصِّله فى طريقه إلى وطنه ، ولا ينافس أهلَ ذلك البلد المستوطن فيه فى عزهم ، ولا يجزع مما أصابه عندهم من الذل .

قال الفضيل بن عياض : « المؤمن فى الدنيا مهمومٌ حزين ، همُّه مَرَمَّةُ[١] جهازه » .

وقال الحسن : « المؤمن فى الدنيا كالغريب ، لا يجزع[٢] من ذُلها ، ولا ينافس فى عزِّها ، له شأن وللناس شأن »

وفى الحقيقة فالمؤمن فى الدنيا غريب ، لأن أباه لما كان فى دار البقاء ، ثم خرج منها ، فهمُّه الرجوع إلى مسكنه الأول ، فهو أبدا يحن إلى وطنه الذى أُخرج منه ، كما يقال: حبُّ الوطن من الإيمان[٣] وكما قيل :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ‏‏ ‏‏ وحنينه أبدا لأول منزل

---

(١) رم الشىء أصلحه ، والمرمة الإصلاح .

(٢) يقول منصور بن عمار : « من جزع من مصائب الدنيا تحولت مصيبته فى دينه » .

(٣) يحسب بعض الناس أن هذا القول حديث نبوى ، ولكن ذلك لم يثبت ، بل هو فيما يظهر من كلام السلف .

ولبعض شيوخنا(١) فى هذا المعنى :

فحيَّ على جنات عدنٍ ، فإنها   منازلك الأولى ، وفيها المخيَّم
ولـكننا سَبْيُ العدو ، فهل ترى   نعود إلى أوطاننا ، ونسلِّم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى   وشطّت به أوطانُه فهو مغرم
وأى اغترابٍ فوق غربتنا التى   لها أضحت الأعداء فينا تحكّم (٢)

---

(١) هو الإمام العلامة ، الفقيه الأصولى ، المفسر المحدث ، العارف الصوفى ، ذو اليد الطولى ، الآخذ من كل علم بالنصيب الأوفى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى ثم الدمشقى ، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة ، وسمع من جماعة ، وتفقه وأفتى ، ولازم الشيخ تقى الدين الملازمة التامة ، وكان أخص تلامذته ، وتفنن فى علوم الإسلام ، فـكان إليه المنتهى فى التفسير وأصول الدين ، وكان فى الحديث والاستنباط منه لا يجارى ، وكان ذا عبادة وتهجد ، عالما بالسلوك والتصوف ، وتصانيفه مملوءة بذلك ؛ وقد امتحن فحبس مرات ، وكان يتلو القرآن ويتدبره ، ففُتح عليه خير كثير .

ومن كتبه زاد المعاد ، وتهذيب سنن أبى داود ، وأمثال القرآن ، وأيمان القرآن ، والصراط المستقيم ، وحادى الأرواح ، وإعلام الموقعين ، والطرق الحـكمية ، وغيرها .

توفى ليلة الخميس ثالث عشر رجب ، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، ودفن بمقبرة الباب الصغير .

(٢) والقصيدة طويلة ، تقارب الخمسين بيتاً ، وجاء فى أولها كما فى كتاب حادى الأرواح :

=

والمؤمنون فى هذا القسم أقسام : منهم مَنْ قلبُه مُعلق بالجنة ؛ ومنهم من قلبه معلق عند خالقه ، وهم العارفون[١] . ولعل أمير المؤمنين رضى الله عنه إنما أشار إلى هذا القسم ؛ فالعارفون أبدانهم فى الدنيا ، وقلوبُهم عند المولى .

=وما ذاك إلا غيرة أن ينالها سوى كفئها ، والرب بالخلق أعلم
وإن حجبت عنا بكل كريهة وحفت بما يؤذى النفوس ويؤلم

وفى آخرها يقول :

فيا بائعاً هـذا ببخس معجَّل كأنك لاتدرى ، بلى سوف تعلم
فإن كنت لاتدرى فتلك مصيبة وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

تجدها فى صفحة ١١ و١٢ و١٣ ، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٧ هـ .

(١) تكلم الصوفية كثيراً عن العارفين . سئل الجنيد : من العارف ؟ فقال : « من لم يأسره لحظه ولا لفظه » . وسئل أبو يزيد البسطامى عن علامة العارف فقال : « ألا يفتر عن ذكره ، ولا يمل من حقه ، ولا يستأنس بغيره » . وسئل البسطامى أيضاً عن درجة العارف ، فقال : « ليس هناك درجة ، بل أعلى فائدة العارف وجود معروفه » . وقال : « أدنى مايجب على العارف أن يهب له — أى لله — ماقد ملَّكه » . وقال أحمد بن خضرويه : « الصبر زاد المضطرين ، والرضا درجة العارفين » . وقال منصور بن عمار : « أحسن لباس العبد التواضع والانكسار ، وأحسن لباس العارفين التقوى ، قال تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير) » . وقال الكرمانى : « شغل العارف بثلاثة أشياء ، بالنظر إلى معبوده مستأنساً به ، والملاحظة لمننه وفوائده شاكراً له ، والتذكر لذنبه معترفاً به ، ومنيبا تائبا إليه » .

وفى مراسيل[١] الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم ، يرويه عن ربه :

« علامة الطهر أن يكون قلب العبد عندى مُعلقا ، فإذا كان كذلك لم ينس على كل حال ، وإذا كان كذلك مننت عليه بالاشتغال بى كيلا ينسانى ، فإذا لم ينسنى حرّكتُ قلبَه ، فإذا تكلم تكلم بى ، وإذا سكت سكت بى ، فذلك الذى تأتيه المعونة من عندى[٢] » .

وأهل هذا الشأن هم غرباء الغرباء ، وغربتُهم أعزّ الغربة ، فإن الغربة عند أهل الطريقة غربتان : ظاهرة وباطنة .

فالظاهرة غربةُ أهل الصلاح بين الفُسَّاق ، وغربةُ الصادقين بين أهل الرياء والنفاق[٣] ، وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء

---

(١) المرسل هو ماسقط منه الصحابى .

(٢) ويستدل لذلك بالحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وماتقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ... » .

(٣) قال الفضيل بن عياض : « خير العمل أخفاه ، وأمنعه من الشيطان أبعده من الرياء » .

الأخلاق ، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُلبوا الخشية[1] والإشفاق ، وغربة الزاهدين[2] بين الراغبين فيما ينفد وليس بباق . وأما الغربة الباطنة فغربة الهمة[3] ، وهى غربة العارفين بين

---

(١) قال أبو بكر الوراق : « من صحت معرفته بالله ظهرت عليه الهيبة والخشية » .

(٢) قال الفضيل بن عياض : « أصل الزهد الرضا عن الله تعالى » . وقال : « كان يقال : جُعل الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الرغبة فى الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا » . وقال أحمد ابن أبى الحوارى : « من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب لها ، أخرج الله نور اليقين من قلبه » . وقال أيضاً : « إذا مرض قلبك بحب الدنيا وكثرة الذنوب ، فداوه بالزهد فيها وترك الذنوب » . وقال يحيى بن معاذ : « الزهد ثلاثة أشياء : القلة والخلوة والجوع » . وقال حمدون القصار : « الزهد عندى ألا تكون بما فى يدك أسكن قلبا منك بضمان سيدك » . وقال أبو عثمان النيسابورى : « الزهد فى الحرام فريضة ، وفى المباح فضيلة ، وفى الحلال قربة » . وقال شاه الكرمانى : « علامة الزهد قصر الأمل » . وقال محمد بن الفضل البلخى : « الدنيا بطنك ، فبقدر زهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا » . وسئل الشبلى عن الزهد ، فقال : « تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء » . وقال جعفر الخلدى : « من أراد أن يزهد فليزهد أولا فى الرياسة ، ثم ليزهد فى قدر نصيب نفسه ومراداتها » . وقال أبو عبد الله السجزى : « علامة الأولياء ثلاثة : تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وإنصاف عن قوة » .

(٣) قال الصوفية كثيرا فى الهمة . قال الخراز الرازى : « الهمم تختلف فى الدارين ، وليس مَن همته فى المشهد الأعلى الحور والقصور ، والاشتغال بنعيم=

الخلق كلِّهم ، حتى العلماء والعُبَّاد والزهاد ، فإن أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم ، وهؤلاء واقفون مع معبودهم ، لا يعرجون بقلوبهم عنه .

فكان أبو سليمان الدارانى يقول فى صفتهم : « همتهم غير همة الناس، وإرادتهم الآخرة غير إرادة الناس ، ودعاؤهم غير دعاء الناس » .

وسئل عن أفضل الأعمال فبكى ، وقال : « أن يطلع على قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره » !.

وقال يحي بن معاذ(1) : « الزاهد غريب الدنيا ، والعارف غريب الآخرة » .

= الجنان وزخرفها ، لكن همته مجالسة مولاه ، والنظر إلى وجهه الكريم » . وقال القصار : « قيمة كل إنسان بقدر همته ، فإن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، وإن كانت همته رضاء الله تعالى فلا يمكن استدراك غاية قيمته ولا الوقوف عليها » . وقال أبو عبد الله الجلاء : « سمت همم العارفين إلى مولاهم ، فلم تعكف على شيء سواه ، وسمت همم المريدين إلى طلب الطريق إليه ، فأفنوا نفوسهم فى الطلب » . وقال : « من علت همته على الأكوان وصل إلى مكوِّنها ، ومن وقف بهمته على شيء سوى الحق فاته الحق ، لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك » .

(١) هو الواعظ الزاهد العارف ، أبو زكريا يحي بن معاذ بن جعفر الرازى ، الذى تكلم فى علم الرجاء ، وأحسن الكلام فيه ، وروى الحديث ؛ خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى نيسابور ، ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين . =

يشير إلى أن الزاهد غريب بين أهل الدنيا ، والعارف غريب بين أهل الآخرة ، لا يعرفه العُبَّاد ولا الزهاد ، وإنما يعرفه من هو مثله ، وهمته كهمته .

وربما اجتمعت للعارف هذه الغربات كلها ، أو كثير منها ، أو بعضها ، فلا يسأل عن غربته حينئذ ؛ فالعارفون ظاهرون لأهل الدنيا والآخرة .

قال يحيى بن معاذ : « العابد مشهور ، والعارف مستور » .

وربما خفى حالُ العارف على نفسه لخفاء حالته ، وإساءة الظن بنفسه .

= ومن كلامه قوله : « الدنيا دار أشغال ، والآخرة دار أهوال ، ولا يزال العبد بين الأهوال والأشغال ، حتى يستقر به القرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار » . وقوله : « أولياؤه أُسراء نعمه ، وأصفياؤه رهائن كرمه ، وأحباؤه عبيد منته ، فهم عبيد محبة لا يعتقون ، ورهائن كرم لا يفكون ، وأسراء نعم لا يطلقون » . وقوله : « لا يزال العبد مقرونا بالتوانى ، ما دام مقيما على وعد الأمانى » . وقوله : « لو أن رجلا فى علم ابن عباس وهو راغب فى الدنيا ، لنهيت الناس عن مجالسته ، فإنه لاينصحك من خان نفسه » . وقوله : « طلب الزهد فرارا من مشقة الأعمال الشاقة بطالة ، ولبس الصوف من غير إماتة النفس جهالة ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل ، والكسل مع وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد مع تضييع العيال جهل » .

قال إبراهيم بن أدهم[١] : « ما أرى هذا الأمر إلا فى رجل لا يعرف ذلك من نفسه ، ولا يعرفه الناس » .

وفى حديث سعد[٢] ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العبد الخفِىَّ التقى » .

---

(١) هو الصوفى العلم أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور العجلى — وقيل التميمى — الزاهد الصدوق ؛ كان من أبناء الملوك والمياسير ، وخرج للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته ، وترك الدنيا وتصوف ، وخرج إلى مكة وصحب الثورى والفضيل ، ودخل الشام ، وبها مات ، وأكل من عمل يده ، وأسند الحديث .

ومن كلامه قوله : « من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه » . وقوله : « أثقل الأعمال فى الميزان أثقلها على الأبدان » .

وصحبه رجل ، ثم أراد أن يفارقه ، فقال الرجل لابن أدهم : إن كنت رأيت فىَّ عيباً فنبهنى عليه . فقال له إبراهيم : « لم أر فيك يا أخى عيبا ، لأنى لاحظتك بعين الوداد ، فاستحسنت كل ما رأيته منك ، فاسأل غيرى » .

(٢) هو سعد بن أبى وقاص ، وقد سبقت ترجمته ، وقد جاء الحديث فى كتاب شرح مشارق الأنوار هكذا : « إن الله عز وجل يحب العبد التقى الغنى الخفى » ج ١ ص ١١٧ . والتقىّ : هو من يبالغ فى اجتناب الذنوب ، لقوله عليه السلام : « لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس » . والغنىّ : المراد به من له غنى النفس ، وقيل المراد به غنىّ المال . والخفىّ : المراد به هنا من يعتزل عن الناس للعبادة . ويروى : الحفى ، وهو من يرحم الضعفاء ، أو الوصول الودود . وجاء الحديث فى الجامع الصغير كالرواية السابقة ؛ رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه .

وفى حديث معاذ[1] ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب من عباده الأخفياء الأتقياء ، الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفقدوا ، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم » .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : « طوبى لكل عبد لم يعرف الناس ، ولم تعرفه الناس ، وعرفه الله منه برضوان ، أولئك مصابيح الهدى ، تجلى عنهم كل فتنة مظلمة » .

---

(١) هو الصحابى الفقيه العالم الصالح الفاضل أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل ابن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى الجشمى المدنى ، أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وشهد العقبة الثانية ، ثم شهد المشاهد مع الرسول عليه السلام ، وقال له النبى : « يامعاذ ، والله إنى لأحبك » وقال : « أوصيك يامعاذ ، لاتدعن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » . وعن ابن مسعود : « إن معاذاً كان أُمـة قانتاً لله حنيفا ، وما كان من المشركين » . والأمة : القائم مقام الجماعة فى عبادة الله .

وقد جمع معاذ القرآن ، وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وكان ممن يفتون على عهد الرسول ، ولما وقع طاعون الشام أصيب به معاذ ، ولما حضرته الوفاة قال : « مرحباً بالموت مرحبا ؛ زائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، إنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر » .

وكانت وفاته سنة ثمانى عشرة ، وقيل سنة سبع عشرة ، وهو ابن ثلاث — أو أربع أو ثمان — وثلاثين سنة .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « كونوا جُدد القلوب ، خُلقان الثياب[١] ، مصابيح الظلام ، تخفون على أهل الأرض ، وتُعرفون فى أهل السماء » .

فهؤلاء أخص أهل الغربة ، وهم الفرارون بدينهم من الفتن[٢] وهم النزّاع من القبائل ، الذين يحشرون مع عيسى عليه السلام ، وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت الأحمر ، فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا ؟.. وتخفى حالهم غالبا على الفريقين ، كما قال :

تواريتُ عن دهرى بظل جناحه ... فعينى ترى دهرى ، وليس يرانى
ولو تسأل الأيام: ما اسمى؟ ما درت ... وأين مكانى ؟ ما عرفن مكانى !

ومن ظهر منهم للناس فهو بينهم ببدنه ، وقلبُه معلق بالنظر الأعلى ، كما قال أمير المؤمنين رضى الله عنه فى وصفهم :

جسمى معى، غير أن الروح عندكم ... فالجسم فى غربة ، والروح فى وطن

---

(١) جدد جمع جديد ؛ وخلقان الثياب وأخلاقها هى الثياب القديمة التى لُبست حتى بليت .

(٢) فى النهاية لابن الأثير : « المسلم أخو المسلم ، يتعاونان على الفتّان ؛ يُروى بضم الفاء وفتحها ، فالضم جمع فاتن ، أى يعاون أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق ويفتنونهم ، وبالفتح هو الشيطان ، لأنه يفتن الناس عن الدين ؛ وفتّان من أبنية المبالغة فى الفتنة » ج ٣ ص ١٨٣ .

وكانت رابعة العدوية[١] — رحمها الله تعالى — تنشد في هذا المعنى :

---

(١) كانت كثيرة البكاء والحزن ، وإذا سمعت ذكر النار غشى عليها ، وكانت تضع كفنها أمامها ، وكانت تقول : مالى حاجة إلى الدنيا ، وتقول : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار » ؛ وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، وسمعت الثورى يقول : وا حزناه !. فقالت له : « وا قلة حزناه !. ولو كنت حزينا ما هناك العيش » . وقيل إنها كانت تنشد :

فليت الذى بينى وبينك عامر   وبينى وبين العالمين خراب
وليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذى فوق التراب تراب

ومن قولها :

أحبك حبين : حبَّ الهوى   وحبّا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى   فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له   فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وسألها الثورى : « لكل عبد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟ . قالت : « ما عبدت الله خوفا من الله ، فأكون كالأَمَة السوء ، إن خافت عملت ؛ ولا حبا للجنة فأكون كأمة السوء ، إن أعطيت عملت ، ولكنى عبدته حبا له وشوقا إليه » .

وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مئة ألف ، وقال : « لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك » . فكتبت إليه : « ما يسرنى أنك عبد ، وأن كل ما تملكه لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين » .

ولقد[١] جعلتُك فى الفؤاد محدِّثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس[٢] مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وأكثرهم لا يقوى على مخالطة الخلق ، فهو يفر إلى الخلوة ليستأنس بحبيبه ، ولهذا كان أكثرهم يطيل الوحدة[٣] .

---

(١) هكذا فى الأصل ، ورواية كتاب التصوف الإسلامى (ج ١ ص ٢٨٧) : « إنى » .

(٢) فى الأصل « للحبيب » ، والصواب « للجليس » . التصوف الإسلامى ج ١ ص ٢٨٧ .

(٣) يقول يحيى بن معاذ : « الوحدة منية الصديقين ، والأنس بالناس وحشتهم » . ويقول ذو النون : « لم أر شيئا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة ، لأنه إذا خلا لم ير غير الله تعالى ، فإذا لم ير غيره لم يحركه إلا حكم الله ، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق » . وانظر أيضاً ما كتبه الإمام الغزالى فى كتابه (الإحياء) عن العزلة ، وفوائدها وآفاتها ، فقد توسع فى ذلك .

جاء فى (الإحياء) أنه قيل لغزوان الرقاشى : هبك لا تضحك ، فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ . قال : « إنى أصيب راحة قلبى فى مجالسة من عنده حاجتى » . وقال الفضيل : « إذا رأيتُ الليل مقبلا فرحت به ، وقلت : أخلو بربى ، وإذا رأيت الصبح أدركنى استرجعت ، كراهية لقاء الناس ، وأن يجيئنى من يشغلنى عن ربى » . وقال مالك بن دينار : « من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قلَّ علمه ، وعمى قلبه ، وضيع عمره » .

وقد عدَّ الغزالى من فوائد العزلة : التفرغ للعبادة والمناجاة ، والتخلص بها من المعاصى التى يتعرض لها المخالط غالبا ، والخلاص من الفتن والخصومات=

وقيل لبعضهم : ألا تستوحش ؟ . قال : كيف أستوحش وهو يقول : « أنا جليس من ذكرنى » ؟ .

وقال آخر : وهل يستوحش مع الله أحد ؟ ! .

وعن بعضهم : من استوحش من وحدته فذلك لقلة أنسه[1] بربه .

وكان يحيى بن معاذ كثير العزلة والانفراد ، فعاتبه أخوه ؛ فقال : إن كنتْ من الناس فلا بد لك من الناس . فقال يحيى : إن كنت من الناس فلا بدَّ لك من الله ! .

وقيل له : إذا هجرت الخلق ، مع من تعيش ؟ . قال : مع مَنْ هجرتُهم له .

وأنشد إبراهيم بن أدهم :

= وإيذاء الناس ، وانقطاع طمع الناس فى الإنسان وطمعه فيهم ، والخلاص من مشاهدة الحمقى والثقلاء .

وعدَّ من آفات العزلة : الانقطاع عن التعلم والتعليم ، وعن نفع الناس والانتفاع منهم ، وعن التأدب والتأديب ، وعن الاستئناس والإيناس ، وعن نيل الثواب فى أعمال تقتضيها المخالطة ، وعن نعمة التواضع ، وعن التجارب .

(١) يقول ذو النون : « الأنس بالله نور ساطع ، والأنس بالخلق هَمٌّ واقع » . ويقول السرى السقطى : « أربعة أشياء لا يسكن فى القلب معها غيرها : الخوف من الله وحده ، والرجاء لله وحده ، والحب لله وحده ، والأنس بالله وحده » .

هجرت الخلق طرًّا فى هواكا وأيتمتُ العيالَ لـكى أراكا
فلو قطَّعتنى فى الحبِّ إرْباً[١] لما حنَّ الفؤادُ إلى سواكا !

وعوتب ابن غزوان[٢] على خلوته ، فقال :

«إنى أصبتُ راحةَ قلبى فى مجالسة من إليه حاجتى» .

ولغربتهم من الناس ربما نُسب بعضهم إلى الجنون ، لبُعد حاله من أحوال الناس ؛ كما كان أويس[٣] يقال ذلك عنه .

---

(١) الإرب بكسر فسكون : العضو . يقال : قطع الجزار الشاة إرْبا إرْبا ، أى عضوا عضوا .

(٢) هو أبو نوح عبد الرحمن بن غزوان مولى عبد الله بن مالك الخزاعى ويقال الضبى ، يعرف بقراد ، كان كيسا عاقلا من الرجال ، ثقة ليس به بأس ، وكان شعبة ينزل عليه . سكن بغداد ، وروى عن جماعة ، وروى عنه جماعة . مات كما فى تاريخ بغداد سنة سبع ومائتين ، وفى تهذيب التهذيب لابن حجر أنه توفى سنة سبع وثمانين ومائة .

(٣) هو سيد التابعين ، الزاهد الـكبير ، العابد العلم ، أويس بن عامر — ويقال ابن عمرو — القرنى اليمنى ، نزيل الـكوفة ، وهو منسوب إلى قَرَن — بفتح القاف والراء ، بطن من مراد — كان من أكابر الزهاد ، رث البيت قليل المتاع ، وكان أشهل ذا صهوبة ، وكان يلزم المسجد مع جماعة من أصحابه ، وكان إذا أمسى يقول : « اللهم إنى أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائع ، فإنه ليس فى بيتى من الطعام إلا مافى بطنى » .

وكان يقول : « إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يدع للمؤمن من صديق ، فـكلما أمرناهم بالمعروف شتموا أعراضنا ، ووجدوا على ذلك أعوانا من الفاسقين ، حتى والله لقد رمونى بالعظائم » . =

وكان أبو مسلم الخولانى[١] كثير اللهج بالذكر ، لا يفتر لسانه ؛ فقال رجل لجلسائه : أمجنون صاحبكم ؟.

قال أبو مسلم : «يا ابن أخى ، لـكن هذا هو دواء الجنون» .

وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « اذكروا الله حتى يقولوا مجنون » .

وقال الحسن فى وصفهم : « إذا نظر إليهم الجاهل حسبهم

= وكان مشغولا بخدمة والدته ، ولذلك لم يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنه اجتمع به ، والأول أصح ، وكان الناس لا يرونه إلاَّ كل سنة أو سنتين مرة ، لأنه لما نسبوه إلى الجنون بنى له خصا على باب داره ، فكانوا لا يرونه يخرج منه إلا فى النادر .

وقال له هرم بن حيان : أوصنى ؛ فقال : « توسد الموت إذا نمت ، واجعله نصب عينك إذا قمت » . وكان يقول : « الدعاء بظهر الغيب أفضل من الزيارة واللقاء ، لأنهما قد يعرض فيهما التزين والرياء » .

قال بعضهم إنه مات بالحيرة ؛ وقال آخرون : بل مات مع على بن أبى طالب مقاتلا بين يديه فى صفين .

(١) هو العابد الزاهد الثقة ، أبو مسلم عبد الله بن ثُوَب — ويقال ابن أثوب ، ويقال ابن عوف ، ويقال ابن مشكم ، ويقال اسمه يعقوب بن عوف — الخولانى الشامى ؛ رحل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فلم يدركه ، وعاش إلى زمن يزيد بن معاوية ؛ وكان على جانب عظيم من العبادة ، حتى لو قيل له إن جهنم تتسعر لما استطاع أن يزيد فى عمله شيئا ، وكان يترك الأكل ويقول : « الخيل إنما تجرى وهى ضمر » . وكان يقول : « من شد رجليه فى الصلاة ثبت الله رجليه على الصراط » . واللهج : الإغراء بالشىء والمثابرة عليه والولوع به .

مرضى ؛ وما بالقوم من مرض ؛ ويقول : قد خولطوا[١] ، وقد خالط القوم أمر عظيم . . . هيهات ! والله مشغول عن دنيا كم .

وفى هذا المعنى قال :

وحرمة الودِّ مالى عنكم عوضُ
وليس لى فى سواكم ـ سادتى ـ غرض

وقد شرطت على قوم صحبتهمُ ... بأن قلبى لكم من دونهم ؛ فرَضوا

ومن حديثى بهم قالوا : به مرض ... فقلت : لا زال عنى ذلك المرض[٢]

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى إلى رجل فقال :

---

(١) خولط الرجل فى عقله واختلط ، أى أصابه خبل وجنون .

(٢) وكان ذو النون المصرى ينشد :

أموت وما ماتت إليكَ صبابتى ... ولا قضَّيتُ من صدق حبك أوطارى
مناى ، المنى كلُّ المنى ، أنت لى منى ... وأنت الغنى ، كل الغنى ، عند إقتارى
وأنت مدى سؤلى ، وغاية رغبتى ... وموضع آمالى ، ومكنون إضمارى
تحمَّل قلبى فيك مالا أبثه ... وإن طال سقمى فيك ، أو طال إضرارى
وبين ضلوعى منك مالكَ قد بدا ... ولم يبد باديه لأهل ولا جار
وبى منك فى الأحشاء داء مخامر ... فقد هد منى الركن ، وانبث إسرارى
ألست دليل الركب إن هم تحيروا ... ومنقذَ من أشفى على جُرف هارى ؟
أنرت الهدى للمهتدين ، ولم يكن ... من النور فى أيديهمُ عشر معشار
فنَلْنى بعفو منك أحيا بقربه ... أغثنى بيسر منك يطرد إعسارى

« استحى من الله كما تستحي من رجلين من صالحى عشيرتك لا يفارقانك[١] » .

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم ، قال :

« أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت[٢] »

وفى حديث آخر أنه سئل صلى الله عليه وسلم : ما تزكية المرء نفسه ؟ قال : « أن يعلم أن الله معه حيث كان » .

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة فى ظل الله ، يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » . فذكر منهم رجلا حيث توجه علم أن الله معه[٣]

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الإحسان ، فقال :

---

(١) ورد هذا الحديث فى الجامع الصغير ، ولفظه : « استحى من الله استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك » . رواه ابن عدى فى الكامل عن أبى أمامة ، وعليه علامة الضعيف .

(٢) ورد هذا الحديث فى الجامع الصغير ، رواه الطبرانى فى الكبير ، وأبو نعيم فى الحلية عن عبادة بن الصامت ، وعليه علامة الضعيف .

(٣) جاء هذا الحديث فى الجامع الصغير ؛ ولفظه : « ثلاثة فى ظل الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله ، رجل حيث توجه علم أن الله تعالى معه ، ورجل دعته امرأة إلى نفسها فتركها من خشية الله ، ورجل أحب لجلال الله » . رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة .

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[١] » .

ولأبى عبادة[٢] فى هذا المعنى أبيات حسنة ، أساء بقولها فى مخلوق ، وقد أصلحت منها أبياتاً حتى استقامت على الطريقة :

---

(١) هذا جزء من حديث طويل مشهور ، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وأوله : « عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولايعرفه منا أحد ... » إلخ .

وفى العبادة يقول منصور بن عمار : « قلوب العباد كلها روحانية ، فإذا دخلها الشك والخبث امتنع منها روحها » . وقال أبو عبد الله بن الجلاء : « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض فى أول مواقيتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحِّد » .

(٢) هو أبو عبادة وأبو الحسن الوليد بن عبيد الله بن يحيى بن عبيد ابن شملان البحترى الطائى ، الشاعر المشهور المطبوع ، ولد سنة ست ومائتين بناحية منبج من أعمال حلب ، ونشأ فى قبائل طى فغلبت عليه فصاحة العرب ، واتصل بأبى تمام وتخرج عليه . وقال له أبو تمام : أنت أشعر من أنشدنى . وكان البحترى فاضلا أديباً بليغاً مجيدا ، وبعض أهل عصره يقدمه على أبى تمام . وخرج البحترى إلى العراق ، وأقام فى خدمة المتوكل والفتح بن خاقان محترما عندهما إلى أن قتلا فى مجلس كان البحترى حاضراً فيه ، فرجع إلى منبج ، وبقى يختلف أحيانا إلى رؤساء بغداد وسر من رأى ، وكان على فضله وشاعريته بخيلا ، وسخ الثياب ، بغيض الإنشاد ، كثير الافتخار .

توفى سنة أربع وثمانين ومائتين .

كأن رقيبا منك يرعى خواطرى[1] وآخر يرعى ناظرى ولسانى

فما بصرت عيناى بعدك منظرا يسوؤك إلا قلتُ قد رمقانى

ولا بدرت من فىَّ بعدك لفظة لغيرك إلا قلت : قد سمعانى

ولا خطرت من ذكر غيرك خطرة على القلب إلا عرَّجا بعنانى

إذا ما تسلى القاعدون عن الهوى بذكر فلان ، أو كلام فلان

وجدت الذى يسلى سواى يشوقنى إلى قربكم[2] حتى أمل مكانى

وإخوان صدق قد سئمت لقاءهم وأغضيت طرفى عنهم ولسانى

وما الغض أسلى عنهم ، غير أننى أراك كما كل الجهات ترانى

انتهى آخر ما وجدناه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال أبو الحسن المزين الصوفى : « للقلوب خواطر يشوبها شىء من الهوى ، لكن العقول المقرونة بالتوفيق تزجر عنها وتنهى » . وقال أبو تراب النخشبي : « ليس من العبادات شىء أنفع من إصلاح خواطر القلوب » .

(٢) قال أحمد بن خضرويه الصوفى : « أقرب الخلق إلى الله أوسعهم خُلقا » . وقال أبو الحسين النورى : « من وصل إلى وده أنس بقربه ، ومن توسل بالوداد فقد اصطفاه من بين العباد » . وسئل أبو عبد الله بن خفيف عن القرب ، فقال : « قُربك منه بملازمة الموافقات ، وقربه منك بدوام التوفيق » .

ملحق للبحث

كلام الإمام الشاطبي فى غربة الإسلام

بعد ما تقدم من كلام الإمام ابن رجب الحنبلي عن غربة الإسلام ، وتعليقاتى عليه ، رأيت من الخير أن أُثبت هنا كلاماً نفيساً قاله الإمام الشاطبي فى صدر كتابه (الاعتصام[1]) وتعرَّض فيه لشرح حديث الغربة ، بمناسبة شروعه فى فصول كتابه الذى يتحدث عن حقائق الإسلام، وغربتها بين البدع والأهواء ، وغربة أهل الحق بين أهل الباطل .

والشاطبي هو الإمام العلامة ، المحقق القدوة ، الحافظ المجتهد ، المفسر السنى ، الأصولى اللغوى ، الفقيه المحدث ، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الغرناطى ، المشهور بالشاطبي .

أخذ العربية وغيرها عن أئمة ؛ منهم ابن الفخار الألبيرى ، وأبو القاسم السَّبتى ، وأبو عبد الله التلمسانى ، وأبو عبد الله المقرى ، وأبو سعيد بن لب ، وابن مرزوق الجد ، وأبو على الزواوى ، وأبو عبد الله البلنسى ، وأبو جعفر الشقورى ، وأبو العباس القبَّاب ، وأبو عبد الله الحفَّار . وأخذ عنه أئمة ، منهم أبو يحيي بن عاصم ، وأبو بكر بن عاصم ، وأبو عبد الله البيانى .

وقد اجتهد الشاطبي وبرع ، وبالغ فى التحقيق ، وله تآليف نفيسة ، أشهرها (الموافقات) و (الاعتصام) ، وكان لا يأخذ الفقه إلا من كتب المتقدمين .

تُوفى يوم الثلاثاء ثامن شعبان ، سنة تسعين وسبعمائة .

وفيما يلى ماقاله الإمام الشاطبي :

---

(١) ج ١ ص ٣ - ١٣

كلام الشاطبى عن الغربة

« أما بعد ، فإنى أذاكرك أيها الصديق الأوفى ، والخالصة[1] الأصفى ، فى مقدمة ينبغى تقديمها قبل الشروع فى المقصود ، وهى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « بُدئ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدئ ، فطوبى للغرباء . قيل : ومن الغرباء يارسول الله ؟ . قال : الذين يصلحون عند فساد الناس » .

وفى رواية قيل : «ومن الغرباء ؟ . قال : النزوع من القبائل» . وهذا مجمل ، ولـكنه مبيَّن فى الرواية الأخرى .

وجاء من طريق آخر : « بُدئ الإسلام غريباً ، ولاتقوم الساعة حتى يكون غريباً كما بدئ ، فطوبى للغرباء حين يفسد الناس » .

وفى رواية لابن وهب قال عليه السلام : « طوبى للغرباء ، الذين يُمسكون بكتاب الله حين يُترك ، ويعملون بالسنة حين تطفى » . وفى رواية : « إن الإسلام بدئ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدئ ، فطوبى للغرباء . قالوا : يارسول الله ، كيف يكون غريباً ؟ .قال : كما يقال للرجل فى حيٍّ كذا وكذا : إنه لغريب » . وفى رواية إنه سئل عن الغرباء ، قال : « الذين يُحيون ما أمات الناس من سنتى » .

وجملة المعنى فيه — من جهة وصف الغربة — ما ظهر بالعيان والمشاهدة فى أول الإسلام وآخره ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل ، وفى جاهلية جهلاء ، لاتعرف من الحق رسما ، ولاتقيم به فى مقاطع الحقوق حكما ؛ بل كانت تنتحل[2] ماوجدت عليه آباءها ، وما استحسنه أسلافها ؛ من الآراء المنحرفة ، والنحل المختر َعة ، والمذاهب

---

(١) الخالصة : الخالة ، وهى الصديق .

(٢) انتحل الشىء : ادعاه لنفسه ، ونحله القول نسبه إليه .

المبتدَعة ؛ فحين قام فيهم صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ، فسرعان ماعارضوا معروفه بالنكر ، وغيَّروا فى وجه صوابه بالإفك ، ونسبوا إليه — إذ خالفهم فى الشِّرعة ، ونابذهم فى النِّحلة — كلَّ مُحال ، ورموه بأنواع البهتان ؛ فتارة يرمونه بالكذب ، وهو الصادق المصدوق ، الذى لم يجربوا عليه قطُّ خبراً بخلاف مخبره ؛ وآونة يتهمونه بالسحر ، وفى علمهم أنه لم يكن من أهله ، ولاممن يدعيه ؛ وكرة يقولون : إنه مجنون ، مع تحققهم بكمال عقله ، وبراءته من مسِّ الشيطان وخبله .

وإذا دعاهم إلى عبادة المعبود بحقٍّ وحده لاشريك له ، قالوا : « أجعل الآلهةَ إلهاً واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب[1] » ! . مع الإقرار بمقتضى هذه الدعوة الصادقة : « فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين[2] » .

وإذا أنذرهم بطشة يوم القيامة ، أنكروا مايشاهدون من الأدلة على إمكانه ، وقالوا : « أئذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد[3] » ! ...

وإذا خوَّفهم نقمة الله قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم[4] » ؛ اعتراضاً على صحة ما أخبرهم به ، مما هو كائن لامحالة . .

وإذا جاءهم بآية خارقة افترقوا فى الضلالة على فرق ، واخترقوا[5] فيها بمجرد العناد ما لايقبله أهل التهدِّى إلى التفرقة بين الحق والباطل . كل ذلك قصداً منهم إلى التأسى بهم ، والموافقة لهم على ماينتحلون ؛ إذ رأوا خلاف المخالف لهم فى باطلهم ردًّا لما هم عليه ، ونبذاً لما شدُّوا عليه يد الظنة ؛ واعتقدوا — إذ لم يتمسكوا بدليل — أن الخلاف يوهن الثقة ، ويقبِّح جهة

---

(١) سورة ص — آية ٥ (٢) سورة العنكبوت — آية ٦٥
(٣) سورة ق — آية ٣
(٤) سورة الأنفال — آية ٣٢ . وأول الآية : « وإذ قالوا اللهم ... »
(٥) اخترقوا : اختلقوا وكذبوا .

الاستحسان ؛ وخصوصاً حين اجتهدوا فى الانتصار بعلم ، فلم يجدوا أكثر من تقليد الآباء .

ولذلك أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام فى مُحاجَّة قومه : « ماتعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون[١] » ! .

فحادوا كما ترى عن الجواب القاطع المورد ؛ فورد السؤال إلى الاستمساك بتقليد الآباء ؛ وقال الله تعالى : « أم آتيناهم كتاباً من قَبْله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون[٢] » .

فرجعوا عن جواب ما أُلزموا إلى التقليد ، فقال تعالى : « أوَ لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم[٣] » ؟ . فأجابوا بمجرد الإنكار ، ركونا إلى ماذكروا من التقليد ، لابجواب السؤال .

فكذلك كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنكروا ماتوقعوا معه زوال مابأيديهم ، لأنه خرج عن معتادهم ، وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم ؛ حتى أرادوا أن يستنزلوه على وجه السياسة فى زعمهم ، ليوقعوا بينه وبين المؤالفة والموافقة ، ولو فى بعض الأوقات ، أو فى بعض الأحوال ، أو على بعض الوجوه ، ويقنعوا منه بذلك ، ليقف لهم بتلك الموافقة واهى بنائهم ؛ فأبى عليه السلام إلا الثبوت على محض الحق ، والمحافظة على خالص الصواب ؛ وأنزل الله : «قل يا أيها الكافرون ، لاأعبد ماتعبدون[٤] ..» إلى آخر السورة .

---

(١) سورة الشعراء : آية ٧٠ — ٧٤

(٢) سورة الزخرف : آية ٢١ — ٢٢

(٣) سورة الزخرف : آية ٢٤

(٤) سورة الكافرون : آية ١ و٢

فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة ، ورموه بسهام القطيعة ، وصار أهل السلم كلهم حرباً عليه ، وعاد الولى الحميم عليه كالعذاب الأليم ، فأقربهم إليه نسباً كان أبعد الناس عن موالاته ، كأبى جهل وغيره ؛ وألصقهم به رحماً كانوا أقسى قلوباً عليه ؛ فأى غربة توازى هذه الغربة ؟ ! . .

ومع ذلك فلم يكله الله إلى نفسه ، ولا سلطهم على النَّيل من أذاه ، إلا نيل المصلوفين[١] ؛ بل حفظه وعصمه وتولاه بالرعاية والكلاءة ، حتى بلغ ربه[٢] .

ثم ما زالت الشريعة فى أثناء نزولها ، وعلى توالى تقريرها ، تبعد بين أهلها وبين غيرهم ، وتضع الحدود بين حقها وبين ما ابتدعوا ؛ لكن على وجه من الحكمة عجيب ؛ وهو التأليف بين أحكامها وبين أكابرهم فى أصل الدين الأول الأصيل ؛ ففى العرب نسبتهم إلى أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وفى غيرهم لأنبيائهم المبعوثين فيهم ؛ كقوله تعالى بعد ذكر كثير من الأنبياء . « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده[٣] » . وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين . . .[٤] » .

وما زال عليه السلام يدعو إليها ، فيؤوب إليه الواحد بعد الواحد ، على حكم الاختفاء ، خوفا من عادية الكفار ، زمان ظهورهم على دعوة الإسلام ؛ فلما اطلعوا على المخالفة أنفوا ، وقاموا وقعدوا ؛ فمن أهل الإسلام مَن لجأ إلى قبيلة فحموه على إغماض ، أو على دفع العار فى الإخفار[٥] ، ومنهم من فرَّ من

---

(١) الصلف : قلة البركة ، والتزيد فى الكلام .

(٢) أى حتى لقى ربه .

(٣) سورة الأنعام — آية ٩٠ .

(٤) سورة الشورى : آية ١٣ . وبقيتها : « ... ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب » .

(٥) الإغماض : التغافل والتساهل . والإخفار : نقض العهد . والغرة : يقال أخذه على غرة أى على غير تنبه منه .

الأذية وخوف الغرة ، هجرة إلى الله ، وحبا فى الإسلام ؛ ومنهم من لم يكن له وَزر[١] يحميه ، ولا ملجأ يركن إليه ؛ فلقى منهم من الشدة والغلظة والعذاب أو القتل ما هو معلوم ، حتى زل منهم من زل ، فرجع أمره بسبب الرجوع إلى الموافقة ؛ وبقى منهم من بقى صابراً محتسبا ، إلى أن أنزل الله تعالى الرخصة فى النطق بكلمة الكفر على حكم الموافقة ظاهراً ، ليحصل بينهم وبين الناطق الموافقة وتزول المخالفة ، فنزل إليها من نزل على حكم التقية[٢] ، ريثما يتنفس من كربه ، ويتروَّح من خناقه[٣] ، وقلبه مطمئن بالإيمان . . .

وهذه غربة أيضا ظاهرة . . .

وإنما كان هذا جهلا منهم بمواقع الحكمة ، وأن ما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم وهو الحق ضد ما هم عليه ، فمن جهل شيئاً عاداه ، فلو علموا لحصل الوفاق ، ولم يسمع الخلاف ؛ ولكن سابق القدر حتَّم على الخلق ما هم عليه ؛ قال الله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك[٤] » .

ثم استمر تزيد[٥] الإسلام ، واستقام طريقه على مدة حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بعد موته ، وأكثر قرن الصحابة رضى الله عنهم ، إلى أن نبغت فيهم نوابغ[٦] الخروج عن السنة ، وأصغوا إلى البدع المضلة ، كبدعة القدَر ، وبدعة الخوارج ، وهى التى نبه عليها الحديث بقوله : « يقتلون أهل الإسلام ، ويدَعون أهل الأوثان ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم[٧] » . يعنى لا يتفقهون فيه ، بل يأخذونه على الظاهر ، كما بينه حديث ابن عمر الآتى بحول الله ؛ وهذا كله فى آخر عهد الصحابة .

---

(١) الوزر : الملجأ والمعتصم .
(٢) التقية : التوقى والحذر .
(٣) أى يستريح مما يضايقه ، ويخلص مما يعسر عليه .
(٤) سورة هود : آية ١١٩ .
(٥) أى زيادته وقوته وانتشاره .
(٦) أى ظهرت فيهم ظواهر البدعة .
(٧) التراقى : جمع ترقوة ، وهى مقدم الحلق فى أعلى الصدر حيثما يترقى فيه النفس ؛ والحديث رواه البخارى ومسلم والترمذى .

ثم لم تزل الفرق تكثر ، حسبما وعد به الصادق صلى الله عليه وسلم ، فى قوله : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » . وفى الحديث الآخر : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا فى جحر ضب لاتبعتموهم . قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ . قال : فمن ؟ »[١] . وهذا الحديث أعم من الأول ، فإن الأول — عند كثير من أهل العلم — خاص بأهل الأهواء ، وهذا الثانى عام فى المخالفات ، ويدل على ذلك من الحديث قوله : « حتى لو دخلوا فى جحر ضب لاتبعتموهم » .

وكل صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها ، ويحض سُؤَّاله بل سواه عليها ، إذا التأسى فى الأفعال والمذاهب موضوعٌ طلبه فى الجبلة ، وبسببه تقع من المخالف المخالفة ، وتحصل من الموافق الموافقة ، ومنه تنشأ العداوة والبغضاء للمختلفين .

وكان الإسلام فى أوله وجِدَّته[٢] مقاوِما ، بل ظاهرا ، وأهله غالبين ، وسوادهم أعظم الأسودة[٣] ، فخلا من وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء الناصرين ، فلم يكن لغيرهم — ممن لم يسلك سبيلهم ، أو سلكه ولكنه ابتدع فيه — صولة يعظم موقعها ، ولا قوة يضعف دونها حزب الله المفلحون ، فسار على استقامة ، وجرى على اجتماع واتساق ، فالشاذ مقهور مضطهد ، إلى أن أخذ اجتماعه فى الافتراق الموعود ، وقوته إلى الضعف المنتظر ، والشاذ عنه تقوى صولته ويكثر سواده .

واقتضى سر التأسى المطالبة بالموافقة ، ولا شك أن الغالب أغلب ، فتكالبت

---

(١) الحديث : « افترقت اليهود ... » رواه أبو داود والترمذى . والحديث : « لتتبعن سنن من قبلكم ... » رواه البخارى ومسلم .

(٢) أى فى وقت عظمته وقوته .

(٣) السواد العدد الكثير من الناس .

على سواد السنة البدعُ والأهواء ، فتفرق أكثرهم شيعاً ؛ وهذه سنة الله فى الخلق : أن أهل الحق فى جنب أهل الباطل قليل ، لقوله تعالى : « وماأكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين[(١)] » . وقوله : « وقليلٌ من عبادى الشكور[(٢)] » .

ولينجز الله ماوعد به نبيَّه صلى الله عليه وسلم من عَوْدِ وصف الغربة إليه ، فإن الغربة لاتكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم ، وذلك حين يصير المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، وتصير السنة بدعة ، والبدعة سنة ؛ فيقام على أهل السنة بالتثريب[(٣)] والتعنيف ، كما كان أولا يقام على أهل البدعة ، طمعاً من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال ، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة ، فلا تجتمع الفرق كلها — على كثرتها — على مخالفة السنة عادة وسمعا ؛ بل لابد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتى أمر الله ؛ غير أنهم — لكثرة ما تناوشهم[(٤)] الفرق الضالة ، وتناصبهم العداوة والبغضاء ، استدعاءً إلى موافقتهم — لايزالون فى جهاد ونزاع ، ومدافعة وقراع[(٥)] ، آناء الليل وأطراف النهار ، وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل ، ويثيبهم الثواب العظيم .

فقد تلخص مما تقدم أن مطالبة المخالف بالموافقة جارٍ مع الأزمان ، لايختص بزمان دون زمان ؛ فمن وافق فهو عند المطالب المصيبُ على أى حال كان ، ومن خالف فهو المخطىء المصاب ؛ ومن وافق فهو المحمود السعيد ، ومن خالف فهو المذموم المطرود ؛ ومن وافق فقد سلك سبيل الهداية ، ومن خالف فقد تاه فى طرق الضلالة والغواية » . اهـ .

---

(١) سورة يوسف — آية ١٠٣
(٢) سورة سبأ — آية ١٣
(٣) التثريب : اللوم .
(٤) أى تتطاول عليهم باعتداء .
(٥) القراع هو المقارعة والمقاتلة .

تخريج صاحب المنار للحديث

هذا ، وقد جاء فى هامش (الاعتصام) تخريج آخر للحديث ، صنعه المرحوم السيد محمد رشيد رضا ، ونصه :

« روايات الحديث : (بدأ الإسلام) بالفعل المبنى للمعلوم المسند إلى فاعله ، وضبطه النووى بالهمزة ، بناء على الرواية ، وهو من البدء بمعنى الابتداء ، واستشكله بعضهم . لأن بدأ المهموز متعد ، وضبطوه بالقصر من البدوّ وهو الظهور .

روى مسلم عن أبى هريرة ، والنسائى عن ابن مسعود ، وابن ماجه عنهما ، وعن أنس ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء) . ورواه مسلم عن ابن عمر بلفظ : (إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، ويأرز بين المسجدين كما تأرز الحية فى جحرها). ورواه الترمذى عن عمرو بن عوف المزنى بلفظ : (إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية فى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأُرْوِيّة من رأس الجبل . إن الدين بدأ غريبا ، ويرجع غريبا ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى) .

والطبرانى وأبو نصر فى الإبانة عن عبد الرحمن بن سنة ، بلفظ : (إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا ، فطوبى للغرباء . قيل : يا رسول الله ، وما الغرباء ؟ . قال : الذين يصلحون عند فساد الناس) . وفى رواية بدون ذكر السؤال ، وبزيادة : (والذى نفسى بيده ليأرزن الإسلام مابين المسجدين ، كما تأرز الحية إلى جحرها) . . وأحمد عن سعد بن أبى وقاص بلفظ قريب من هذا اللفظ .

والأروية فى حديث الترمذى بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء : أنثى الوعول ، أى تيوس الجبل ، وهى تعتصم فى أعلى الجبال ، ولذلك يقال للوعل : الأعصم . وأرز — كعلم وضرب ونصر — تجمع وعاد وثبت .

والمعنى أن الدين سيعتقل ويعتصم فى الحجاز ، ويتجمع فيه عندما يكون غريبا ، فيعود إلى الحجاز كما بدأ منه ، ويكون عزيزا قويا فيه كالأروية فى شناخيب[1] الجبال ، ثم يمتد وينتشر منه ثانية ، فيتم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كونه عاد كما بدأ » .

---

(١) الشنخوب والشنخوبة : رأس الجبل ، والجمع شناخيب .

أما بعد

فقد طالعنا أيها القارىء المسلم الكريم فى الصفحات الماضية من الكتاب حديثاً عن الإسلام ، اشترك فيه صوت الماضى وصوت الحاضر ؛ وطالعتنا آيات من تنزيل الحق ، تصدع بالصدق ، وتهدى إلى الرشاد ؛ وبيناتٌ من هدى النبوة ، تعصم من الزلل ، وتحفظ من الفساد ؛ وتراجمُ لأئمة أعلام من هداة هذه الأمة ، كان فى حياتهم عبر وعظات ، وأُثرت عنهم كلمات سائرات ، تفيض بالحكمة وصدق التجربة وإخلاص النصيحة ؛ وطرقت أسماعَنا وبلغت أفئدتنا نفحاتٌ فيها روح التقوى واليقين ، ومرت علينا أفانين من الأحاديث الدائرة حول غربة الإسلام ! .

فما هو أثر ذلك الحديث المنوَّع فى الحس والنفس ، وفى الجنب والقلب ؟ .. وما هى الخواطر والمشاعر التى تثور فى نفوسنا عقب تلك الجولة الإسلامية ؟ . . . وما هو موقفنا من نصرة ذلك الإسلام الغريب ، وأولئك المسلمين الغرباء ؟ ! . .

إنه لمن الخير أن نحسن الاستعداد للجواب قبل أن نجيب ! .

أحمد الشرباصى

من مراجع الكتاب

١ — تهذيب الأسماء واللغات ، للنووى .

٢ — طبقات الصوفية ، للشعرانى .

٣ — طبقات الصوفية ، لأبى عبد الرحمن السلمى .

٤ — تاريخ بغداد ، للبغدادى .

٥ — حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصبهانى .

٦ — تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى .

٧ — ذيل طبقات الحنابلة ، لابن رجب الحنبلى .

٨ — تقريب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى .

٩ — مختصر طبقات الحنابلة ، للشطى .

١٠ — صفة الصفوة ، لابن الجوزى .

١١ — شذرات الذهب ، لابن العماد .

١٢ — معجم الأدباء ، لياقوت الحموى .

١٣ — سنن ابن ماجة .

١٤ — الجامع الصغير ، للسيوطى .

١٥ — جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلى .

١٦ — النهاية فى غريب الحديث ، لابن الأثير .

١٧ — التاج الجامع للأصول ، لناصف .

١٨ — لسان العرب ، لابن منظور .

١٩ — أساس البلاغة ، لجار الله الزمخشرى .

٢٠ — مفردات القرآن ، للراغب الأصفهانى .

٢١ — القاموس المحيط ، للفيروز ابادى .

٢٢ — نهج البلاغة ، للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

٢٣ — نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، للشوكانى .

٢٤ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

٢٥ — الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، لابن حجر .

٢٦ — السيرة النبوية ، لابن هشام .

٢٧ — التصوف الإسلامى ، للدكتور زكى مبارك .

٢٨ — إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالى .

٢٩ — المنهل العذب المورود شرح سنن أبى داود .

٣٠ — حادى الأرواح ، لابن قيم الجوزية .

٣١ — الاعتصام ، للامام الشاطبى .

٣٢ — شرح مشارق الأنوار

يصدر قريباً للشارح :

القصاص فى الإســلام

كتاب يبحث موضوع القصاص قبل الإسلام ، وفى الإسلام ، ويشمل دراسات اجتماعية ، وفقهية ، وقانونية ، وأدبية مقارنة . . .

كيف كانت الثارات فى الجاهلية ؟ . . ماهو دور الإسلام فى تهذيب روح الثأر ؟ . . . كيف نظَّم الإسلام القصاص ؟ . . . لمن يكون تنفيذ الحدود ؟ . . . من الذى يقوم بالقصاص ؟ . . . ما هى كلمة القانون الوضعى فى القصاص ؟ . . ماهِى الفروق بين شريعة السماء وشريعة الأرض ؟ . . . ماهى أحكام القصاص ؟ . . . ماهى وجوه الإعجاز القرآنى من نواحى اللفظ والمعنى والاجتماع والموسيقى فى آية القصاص ؟ . . . ماهى الفروق بين تعبير القرآن وتعبير الإنسان ؟ . . . ماهى آراء الفقهاء والمعاصرين فى جريمة القتل ، وفى عقوبة الإعدام ؟ . . .

هذه وغيرها مسائل يتعرض لها الكتاب بتفصيل وتحليل .

يصدر قريباً بمشيئة الله

فهرس الكتاب

